

- ٤٠٧٥ -

— ٤ —

لودولف فون سوخم
وصف الأرض المقدسة
١٣٥٠م

تمهيد للودولف دي سوخم

ما من شيء كما يبدو هو معروف عن لودولف، زيادة عما يمكن جمعه من كتابه، ففي تكريسه الاهدائي أخبرنا بأن كان قسيساً في أبرشية كنيسة سوخم، في أسقفية بادربورن، لكن أين كانت سوخم، وهل علينا أن نلفظها سودهيم Sudheim؟ وقد أعلن الدكتور ف. دايك Deycks أنها بالحري رائل Rathsel ، وكان الدكتور دايك أستاذاً في الأكاديمية الملكية في مونستر Munster ، وهو الذي تولى تحقيق كتاب لودولف في عام ١٨٥١، لصالح النصوص الأدبية لستوتغارد، وعلى هذه الطبعة اعتمدت هذه الترجمة، فضلاً عن هذا تحدث لودولف عن بلديين فون ستينفورت Steinfurt أسقف بادربورن، الذي شغل منصبه من سنة ١٣٤٠ حتى سنة ١٣٦١، ووصفه بأنه سيده المنعم عليه، وقال في خاتمة مخطوطه بأنه كتب هذا الكتاب صدوراً عن الحب والاحترام اللذان يكتنهما له، ولربما ساعده الأسقف بلديين على كتابة كتابه، ولعله كان واحداً من السادة النبلاء الذين عاشوا معه أثناء إقامته لمدة خمس سنوات في الأرض المقدسة، فقد كان هناك من سنة ١٣٣٦ حتى سنة ١٣٤١، ولم يعد إلى هناك — كما يجيل لبعضهم — وعاد لودولف إلى الوطن سنة ١٣٤١،

وتعرض مرتين لخطر عظيم وهو في البحر، وأشار في نهاية كتابه إلى مهاجمة اليهود في ألمانيا في سنة ١٣٤٨ — ١٣٤٩، وهذه الحادثة الجديدة، تتماشى مع كتابه على أنه صنف في سنة ١٣٥٠.

ومنهج لودولف يختلف عن منهج الرحالة بورتشارد المتقدم، وهو أقرب إلى منهج فيلكس فابري الذي سماه بالعجائب، فقد ردد أصداء بعض الحكايات التي كانت متداولة في الشرق، بين الفرنجة بشكل

خاص، لاسيما ما تعلق بشخصية برسترجون، التي سوف نتعرض لها بتوسع لدى الحديث عن العلاقات المغولية الفرنجية، ومعروف أن حكاية برسترجون قد تفرعت عنها فروع كثيرة بعد ظهور جنكيز خان، ثم بعد قدوم حفيده هولانكو نحو العراق وبلاد الشام.

ومهما يكن من أمر تأتي ترجمة كتاب لودولف في سياق عملنا في ترجمة نصوص جميع الرحلات المتعلقة بالحروب الصليبية، وآثارها المباشرة في القرن الرابع عشر، هذا ومن المقرر أن كتاب لودولف يجوي أفضل الرحلات الغربية في هذا القرن الهام.

لودولف فون سوخم وصف الأرض المقدسة

هنا بداية كتاب لودولف حول الحج إلى الأرض المقدسة

إهداء مع جميع الاحترام الجدير، إلى الأب المبجل، والسيّد في المسيح، مولاي المنعم بلدوين أوف ستينفورت، أسقف بادربورن، من لودولف القسيس في الكنيسة الأبرشية في سوخم، في أسقفية بادربورن.

لقد كتب عدد كبير من الرجال بشكل طويل جداً حول بلاد ما وراء البحر، وحول أوضاع وأحوال الأرض المقدسة والمقاطعات الموجودة فيها، وفعلوا ذلك بعد مرورهم بها لمرة واحدة، أما أنا فلقد أقمت في تلك البلدان مدة خمس سنوات دونما انقطاع، كنت خلالها ليلاً ونهاراً بصحبة الملوك، والأمراء، والمقدمين، والنبلاء، والأعيان، وقمت فضلاً عن ذلك بزيارة بلدان ما وراء البحر والسفر خلالها عدة مرات، وصدوراً مني لاحترامكم وتبجيلاً لمحاسن أبوتكم، ولأنكم لم تنسوني، امتلكت رغبة عظيمة لأن أكتب رواية عن أوضاع تلك البلدان، وعن أحوالها، وقراها، وأماكنها الحصينة، ومدنها، وقلاعها، ورجالها، والأخلاق والطباع فيها، وأماكن التعبّد، والأماكن العجيبة، ولم أكتف بالكتابة عن بلاد ما وراء البحر، بل عن العجائب التي يراها الذين يعبرون البحار، ومع أنه قد توفرت لدي الرغبة في تنفيذ هذه الرغبة، غير أنني لم أستطع فعل ذلك وإنجازه، لأنني كنت معوقاً بأعمال مختلفة وثقيلة، ومع ذلك بقيت مفكراً بالكتابة، والآن وقد امتلكت الوقت، فقد قررت أن أصف الأوضاع التي رأيت فيها بلدان ما وراء البحر في سنة ١٣٣٦، وكذلك الأوضاع التي تركتها فيها في سنة ١٣٤١، وأن أكتب تاريخاً مختصراً عنها، وبشكل مكثف، وذلك وفقاً لفهمي

المتواضع، ولقدرتي، ولضعف ذاكرتي، وعلى كل حال، يتوجب أن لا يفترض إنسان أنني قد رأيت كل واحد من الأماكن العديدة، والأشياء التي أنوي الكتابة عنها في هذا الكتاب، بل إنني قمت سعيداً باستخراج بعض المعلومات من كتب التاريخ القديمة، وذلك مع بعض الأشياء التي سمعتها من شفاه أناس صادقين، وبشأن جميع ما كتبه عن أي مكان، أو وجدوه، لقد قررت الاعتماد على حكم القارئ وعلى فهمه، وفي الحقيقة كان من المفروض أن أكتب أكثر، عندما كنت في تلك البلدان وعملت الرأي أن أكتب عنهم بعض الروايات، وعن أوضاعهم الأبرك، هذا وبإمكاني في هذا اليوم كتابة المزيد، ولكنني تجاوزت ذلك بسبب بعض المعارضين التافهين والساخرين، وخشية أن أتحدث عن أي شيء لا يمكن أن يصدقوه، ومن ثم عدّي بسبب ذلك كاذباً، لأن المعارضين التافهين الجاهلين والساخرين الذين لا يستحقون أن يعرفوا شيئاً من الأشياء مطلقاً، كل شيء بالنسبة إليهم هو بعيد عن التصديق، ومن غير المعقول الأخذ به، وبناء عليه إنه بسبب مثل هؤلاء الأشخاص، أرغمت من أجلهم على التخلي عن ذكر جميع الأشياء الجيدة، وكذلك أشياء أخرى كثيرة، لولاهم لقيمت بالكتابة عنها، وإيداع ذلك في كتابي.

١ — حول الأرض المقدسة.

إن الأرض المقدسة، هي أرض الميعاد، التي وعد الرب بأن يعطيها إلى إبراهيم وإلى ذريته، وهي المحبوبة من الرب، والممدوحة من الملائكة، والمعبودة من قبل الناس، لأن ربنا يسوع المسيح قد تطف في تكريس هذا الشيء نفسه، بدمه الثمين جداً، وأن يشرفها بحضوره في كل من شكل ضعفنا الفاني، وفي الأيام الخوالي — حسبنا نقرأ في التاريخ التوراتي — بمجده الرباني وجلالته، وزيادة على هذا بحضوره إلى هناك لتخليص الجنس البشري، من الإدانة واللعنة الدائمة، ومع هذا

فإن هذه البلاد، قد ضربت من قبل الرب بمختلف أنواع الضربات، وذلك بسبب الذنوب المتنوعة لسكانها، ولم تقتصر الضربات التي تلقتها على ما حدث في أيام المسيحيين، بل كان ذلك منذ أقدم العصور، حيث سُكنت من قبل شعوب مختلفة، وفقدت ثم استردت من قبلهم، وذلك حسبها يمكننا القراءة في كثير من التواريخ وفي الكتاب المقدس، ولقد قام يسوع المسيح، دون مبالاة بألامه الرائعة، بتقويم المسيحيين هناك بواسطة عصا التقويم الأبوي، وبناء عليه، عندما تنتهي ذنوب المسيحيين، وعندما يكون راضياً في إرجاع البلاد وردها إلينا، فإنه سوف يحفظ جميع أماكنها، ومدنها، وقراها، وقلاعها، ومعابدها، كأن نقول: بدون أذى، حتى هذا اليوم، وذلك من أجل إمكانية الدفاع عنها، وسكناها، واستردادها، وإعادة كل ما فيها إلى أوضاعه الأصيلة، وذلك على الرغم من أن بعض الأماكن والمعابد قد تعرضت للتشويه والتغيير بشكل مؤلم من قبل المسلمين، لأنه مثلما العين هي أعلى جزء في جسم الانسان وأكثره لطفاً، ولا يمكنها أن تتحمل وجود جسم غريب فيها، كذلك الأرض المقدسة، هي مثل العين للرب، ولهذا السبب لا يمكنه تحمل ذنوب لا يمكن غفرانها فيها.

وعلى كل من يود السفر إلى الأرض المقدسة المذكورة، أن يكون متنبهاً، حتى لا يسافر إلى هناك من دون إذن من الأب الرسولي، لأنه ما أن يلمس شواطئ بلاد السلطان سيكون عرضة لأن يغدو مشمولاً بقرار البابا، لأنه منذ أن أصبحت الأرض المقدسة في أيدي السلطان كانت، وما زالت محرومة كنسياً، ومثلها جميع الذين يسافرون إلى هناك من دون إذن بابوي، وذلك خشية أن المسلمين لدى أخذهم جزية من المسيحيين، أن يندفعوا نحو الاستخفاف بالكنيسة، ولهذا السبب عندما يتسلم أي مسافر جوازه للسفر إلى هناك من الأب الرسولي، يوجد إلى جانب الأذن الذي منح له، هناك شرط في المرسوم يقضي أنه يتوجب

عليه أن لا يشتري أي شيء أو أن يبيع أي شيء مهما كان في الدنيا، باستثناء الطعام واللباس، والحاجات الجسدية، وإذا ما خالف هذا، عليه أن يعرف أنه انتكس ثانية ووقع تحت عقوبة الحرمان الكنسي، ويمكن لبعض الناس أن يسافروا إلى هناك من دون أذن، من ذلك على سبيل المثال إذا كان المسافر رجل دين أو عضواً في إحدى الطوائف الدينية، أو والدًا، أو والده، أو صديقاً لرجل مريض هناك، أو رجل واقع في الأسر، فوقتها يمكنه السفر إلى هناك بدون أذن، حتى يعمل على فكك أسرهم، كما يحق السفر بدون أذن لأي واحد بعث إلى هناك لصنع سلام، أو للإعداد لاسترداد أي شيء آخر مفيد، وفي عودة إلى موضوعي، إنه يتوجب على أي إنسان يود السفر إلى الأرض المقدسة، أن يذهب إلى هناك إما براً أو بحراً، فإذا أراد السفر براً، فقد سمعت من بعض الذين يعرفون الطريق جيداً، أن أفضل الطرق هو الذي يمر من خلال هنغاريا، فبلغاريا، فمملكة تراقيا، غير أنهم يقولون بأن هذا الطريق طريق متعب جداً، وعلى كل حال إن الذي يمكنه تحمل المشاق والوصول سالماً، سوف يصل بوساطة البر — وليس بوساطة البحر — إلى القسطنطينية، وسوف أذكر بعض الشيء حول هذه المدينة.

٢ — القسطنطينية.

القسطنطينية فائقة الجمال، ومدينة عظيمة جداً، وقياس محيطها ثمانية أميال، وقد بنيت على شكل مثلث، وأبنيته في شكلها وهيكلها تشبه أبنية روما، ويمتد جانبان منها على ضفتي ذراع بحري، اسمه ذراع القديس جرجس (البوسفور) في حين يقوم الجانب الثالث على الأرض، والمدينة مزينة بتزيينات متنوعة ومختلفة، وهي قد بنيت من قبل الامبراطور قسطنطين، الذي سهاها القسطنطينية، ويدعوها الاغريق في هذه الأيام باسم بولوس Bolos ويوجد في هذه المدينة كنيسة ذات حجم رائع وجمال فائق، ولاأعتقد أنه يوجد في العالم كنيسة أعظم منها،

لأن سفينة مع جميع أشرعتها ممدودة تستطيع أن تدير نفسها أمامها هناك، وأنا لأجرؤ على الكتابة عن اتساعها بشكل كامل، وهذه الكنيسة مكرسة على شرف القديسة صوفيا وذلك بالاغريقية، ومعنى ذلك باللاتينية «تغيير الرب لشكله»، وهي مزينة بكثير من الآثار المهيبة من مختلف الأنواع، من ذلك: المعطف الذي لانظير له، ومسامير ربنا (العائدة للصليب)، والليفة، والقصبات، وهي متوجة بآثار أخرى لمختلف القديسين، ويقف في وسط هذه الكنيسة، عمود كبير من الرخام، عليه تمثال برونزي جيد التذهيب للامبراطور جستنيان على ظهر حصان، وهو مزين بالتاج الامبراطوري، وبالملابس الملكية، ويوجد في يده اليسرى صولجان ذهبي، وفقاً للطريقة الامبراطورية، ويشير إلى الشرق بيميناه، وذلك بمثابة تهديد للعصاة الذين في ذلك المكان، ويوجد في هذه الكنيسة قطعة من العمود الذي جلد المسيح عنده، وعدد لا يحصى من أجساد القديسين، والبابوات الرومان الراقدين هناك، وقد يكون هذا صحيحاً لأنه في أيامي جاء بعض السادة من كاتالونيا إلى هناك، وخدموا امبراطور القسطنطينية مقابل أجر، وعندما غادروا سألوا الامبراطور منحهم قبل كل شيء آثراً مقدسة، وقد وافق على التماسهم، وفرز عدداً من أجساد القديسين بقدر عددهم، ووقف السادة على بعد، واختار كل منهم جسداً بدوره، وذلك وفقاً لمراتبهم، ونال كل واحد منهم ما استحقه، وكان ذلك جسداً كاملاً لواحد من القديسين، وعادوا جميعاً راضين وإلى بلادهم مسرورين، وأنا لا أتجرأ على قول المزيد حول التزيينات الأخرى العائدة لهذه الكنيسة، ويعيش في هذه المدينة امبراطور الاغريق بشكل دائم، والذي كان امبراطوراً في أيامي (أندرونيكوس الثالث) كان قد اتخذ قرينة له أخت الدوق هنري أوف برونزوك Brunswick، وبعد وفاتها تزوج من ابنة كونت سافوي، ويسكن في هذه المدينة أيضاً بطيريك الاغريق، الذي يطيعه الاغريق في كل شيء، مثلما يطيع اللاتين البابا، كما أنهم لا يقيمون أدنى تقدير للأب الرسولي،

كما أنهم لا يهتمون بأي من أوامره، باستثناء ما يرضيهم أنفسهم، فمنذ أن انفصل الاغريق عن كنيسة روما من خلال الهرطقة، أقدموا على اختيار هذا البطريك، وهم يطيعونه مثل إطاعة البابا حتى هذا اليوم، وفي القسطنطينية تباع جميع الأشياء مثل: الخبز، واللحم، والسمك، وما يشبه ذلك بأزهد الأسعار، ذلك أن ما من شيء غالي الثمن فيها سوى النيذ، الذي يجلب إليها من نابولي، ويسكن في هذه المدينة عدد من الشعوب المختلفة، ويوجد هناك أيضاً كثيراً من المناخ البارد، ولهذا السبب يجري تمليح اللحم هناك، الأمر الذي لا يمكن القيام به في أي مكان آخر في آسيا بسبب الحر، وهناك أيضاً أسماك التربوت حيث تصطاد وتجفف، وتصدر من هناك إلى جميع أجزاء آسيا، ويوجد في هذه المدينة أيضاً قصر الامبراطور القديم، الذي فيه بعض الكؤوس الحجرية التي تمتلئ من قبل نفسها بالماء، ثم تفرغ نفسها مباشرة، ثم تملأ نفسها ومن ثم تصبح فارغة، وبالإضافة إلى هذا هناك كثيراً من اللائي الممتازة، بكميات كبيرة، وهي رخيصة جداً، وينبغي أن يعرف القارئ أن امبراطور الاغريق والشعب الاغريقي حكموا فيما مضى جميع آسيا، أي كل من آسيا الصغرى، وآسيا الكبرى، وتملكوها، لكن منذ أن انشقوا عن كنيسة روما بالهرطقة، فقدوا تقريباً جميع هذه المناطق، لأن حكماً قد صدر بحقهم قضى أن كل واحد يأخذ أيًا منهم أسيراً، يمكنه قانونياً أن يبيعه وكأنه من السائمة، وكل لاتيني يمكنه أن يستولي على أرض هناك، يمكنه أن يتمسك بها حتى يعودوا إلى صدر الكنيسة الأم ويتحولوا، ولهذا السبب فقدوا أجزاء واسعة من أراضيهم وممالكهم، وذلك حسبما سأحدثكم فيما بعد.

٣ — الطريق (إلى الأرض المقدسة) براً، ومملكة الغرب

وفي عودة إلى موضوعي، وتاركاً القسطنطينية، التي يمكن للانسان أن يذهب منها إلى الأرض المقدسة براً، وذلك إذا كان الترحال من بين

الأثراك والتتار آمناً، ولا توجد معيقات أخرى، هذا وعلى المسافر بحراً من القسطنطينية أن يعبر إلى مملكة قبرص، وذلك حسبما سأخبركم فيها بعد، ويقود الطريق الذي أتيت على ذكره، إذا ما اتجه الانسان براً دوماً نحو الشمال، إلى القسطنطينية، ومن القسطنطينية، إذا ما توفر الأمن والتسهيلات، يمكن للانسان أن يسافر براً إلى أي جزء من أجزاء العالم كله، وذلك باتجاه الجنوب، وعلى هذا لن تكون هناك حاجة للذهاب بوساطة البحر.

وبطريقة مماثلة، يمكن للانسان أن يكون قادراً على الذهاب (إلى الأرض المقدسة) من خلال الشمال الأفريقي، والمملكة الغربية، ومملكة غرناطة، غير أن المغاربة لن يسمحوا للمسيحيين بالمرور من ديارهم، مع أن المسلمين الذين يسكنون في إسبانيا وأراغون يرتحلون عبر هذا الطريق عندما يودون زيارة مقامات نبيهم محمد (ﷺ)، لكن المسيحيين لا يمكنهم العبور من خلال هاتين المملكتين، لأن مملكتي المغرب وغرناطة قويتان جداً وغنيتان، وهما مسكونتان من قبل مسلمين لا يكثرثون بالسلطان، وهم على خلاف دائم مع ملك إسبانيا، ويقدمون العون دائماً إلى ملك المغرب، الذي هو مسلم، والذي تقوم مملكته على حدود إسبانيا، أي على ذلك الجزء من البحر الممتد في مواجهة ملك إسبانيا، وعليك أن تعرف أن مملكة المسلمين على ذلك الطرف من البحر ما تزال قائمة، وهي معروفة باسم مملكة الغرب، وهي فائقة القوة، وقائمة على الحدود الاسبانية، كما تقدم القول، وهي تمتلك عدداً من المدن العظيمة وأماكن حصينة، وبلدات، والذي أعتقد أنه من الملك الغرب أكثر قوة من السلطان، لأنه إذا ما توفرت حاجة، يمكنه أن يجشد في نصف ساعة أكثر من مائة ألف رجل مسلح قوي، وهو الذي تصارع وما يزال يتصارع حتى هذا اليوم مع ملوك إسبانيا وكاستيل، كما غالباً سمعت وعرفت، ومثل هذا في جميع مدن أراغون وبلداتها

مسلمون ساكنون فيها، وفي كل واحدة من المدن والبلدات يمتلك الملك قلعة عالية مشحونة بالجند الذين يبقون متيقظين، حتى لا يقوم المسلمون بإثارة أي مشكلة أو القيام بعمل مضر، وعندما يرغب حاكم أية بلدة في إرغام المسلمين على تنفيذ أي عمل، يعطيهم خنازير لإطعامهم وسوقهم إلى المرعى، وهو أمر محرم في شريعتهم، وبهذه الوسيلة وبوسائل أخرى كان يرغم المسلمين على تنفيذ أوامره.

٤ - بلاد ساحل الجزائر وباجة

بلاد ساحل الجزائر هي بلاد معظمها رمال وصحراء، والذين يسكنون فيها هم أثيوبيون سود، ويوجد على مقربة من بلاد ساحل الجزائر بلاد أخرى صغيرة، ليست أكثر من ستة أميال (ألمانية؟) من حيث الاتساع، اسمها باجة، حيث يجري تربية القردة وامساكها، وجميع السكان هناك لهم وجوه مثل وجوه القردة، ويشمل ذلك كل من النساء والرجال، وهم يحتفظون بالقردة في بيوتهم، مثلما يفعل الذين هم من هذه المناطق باحتفاظهم بالكلاب والطيور، وينتجون من هذه القردة، قردة صغار، يتولون بيعها، وبثمنها ينفقون على عيشتهم، ولهذا السبب يقومون بخصي صغار القردة حتى لا يجري تربيتها في مكان آخر، ومع هذا فإنني غالباً ما رأيت قردة صغار في مناطق مختلفة، وينبغي أن نعرف أن البحر المتوسط يتدفق إلى المحيط، فيما بين إسبانيا والمغرب، ويأتي تدفقه خلال مضيق لا يتجاوز عرضه ربع ميل (الزقاق)، ولضيقة تقف على ضفته هنا امرأة مسيحية، وتقف على الضفة المقابلة امرأة كافرة، تقومان بغسل ملابسهما، وتتشامان وتتخاصم إحداهن مع الأخرى، ويطلق على هذا المضيق البحري من قبل السكان المحليين اسم مضيق جبل طارق، أو مضيق المغرب.

وبعدما يعبر الإنسان هذا المضيق الصغير يمكنه الذهاب إلى جميع أنحاء الدنيا، برأ، باتجاه الجنوب، وكما قلنا من قبل لا توجد معيقات على

هذا الطريق، وبعبور هذا المضيق البحري يقدم كل من ملكي الغرب، وغرناطة لتقديم المساعدة إلى ملك الغرب، لأنها يعبرانه بكل سهولة، ومثلاً يصب البحر المتوسط في المحيط من خلال هذا المضيق القائم فيما بين إسبانيا والمغرب، يقوم هذا المتوسط بالطريقة نفسها فيصب في بحر بنطش، قرب أسوار القسطنطينية، وذلك من خلال مضيق اسمه ذراع القديس جورج (البوسفور)، الذي بالعرض نفسه، مثل المضيق المتقدم الذكر، وينبغي أن يكون معلوماً، أنه لا توجد أية مناطق جافة من الأرض في بحر بنطش ولا أحد يعرف بوجود مثل ذلك، إلا باستثناء جزيرة واحدة اسمها خيرسون Cherson ، إليها نفي البابا القديس كليمنت، وقد أغرق بالبحر نفسه، ولقد قرأنا أنه يوجد في هذا البحر هيكل رخامي يفتح إليه ممر في يوم عيد، لكن في هذه الأيام لا يفتح، إنما في الأيام الغواير كان كذلك، ذلك أن جسد القديس كليمنت راقد في روما، والجزيرة مهجورة، وعلى كل حال يجري منها تصدير أجمل الرخام وأفخره، [وهناك بحر آخر باتجاه الشرق وراء مدينة مدينة غارا Gara ، التي هي بأيدي تثار بلاد الكومان، واسم هذا البحر «بحر الخزر»، وهذا البحر غير متصل بكل من المحيط، أو البحر المتوسط، أو بحر بنطش بوساطة أي مضيق مرئي، ويقول بعضهم بأنه متصل بالبحرين الآخرين، ويفصل ذراع القديس جورج الذي تحدثت عنه أوربا عن آسية الصغرى، التي هي مقاطعة من آسيا العظمى، وغالباً ما يطلق على هذا المضيق اسم فم القسطنطينية، لأنه هناك على الشاطئ الأوربي، تقوم مدينة القسطنطينية الجلييلة، التي تعرف أيضاً باسم روما الجديدة، كما تقدم القول].

٥ - البحر المتوسط

البحر المتوسط هو البحر الذي يبهر الانسان عبره إلى الأرض المقدسة، ويطلق عليه اسم البحر المتوسط لأنه يمتد نحو شرقي آسيا،

حيث يشكل حدودها، وأيضاً إلى غرب وشمالى أوروبا، وإلى الجنوب الأفريقي، حيث تنفصل بلدانهم عن بعضها بوساطة مضائقه، ولقد سمعت بأن أفريقيا وأوروبا تنفصلان عن بعضهما بوساطة نهر اسمه اندا Inda ، الذي فيه أغرق الأربعين شهيداً، ويمر هذا النهر نفسه بمدينة اسمها بتريس Biterris وقد أطلق عليها هذا الاسم لأنها قائمة فيما بين برين، والمعنى بذلك: أفريقيا، وأوروبا، ويطلق على أسقفها اسم أسقف بتريس، ولقد قام الفلاسفة الرومان الذين قسموا العالم ووزعوه بين الرومان، ببناء هذه المدينة منذ أيام خلت، وذلك في أيام هانيبال، وقاموا أيضاً ببناء مدينة أخرى إلى جانبها اسمها نربونة، ويطلق على أسقفها اسم أسقف نربونة، وكثيراً ما زرت تلك البلاد، ولكن دعونا نعود إلى موضوعي، حيث عليك أن تعرف بأن البحر المتوسط تتحرك مياهه نحو الداخل والخارج، وذلك حسبها سمعت، وفيه مد وجزر، وبلا شك هو لا يعرف الاستقرار، كما هو واضح بالرؤية، فيما بين كالبرا (قلورية) وصقلية، ففيها بينهما يتدفق البحر بشدة بلغت حداً، أن ما من بحار يجرؤ على الابحار هناك من دون مرشد مختص، ومثلما يمكن رؤية مثل هذا بوضوح في أماكن أخرى كثيرة، وينبغي أن نعرف أن البحر المتوسط ليس له العرض نفسه في جميع الأجزاء، بل هو في بعض المواضع أعرض وفي بعضها أضيق من أماكن أخرى، وأعرض مكان فيه من الغرب إلى الشرق هو الممتد من اسبانيا إلى غاليشيا، وقطلونيا وجزئياً إلى بروفانس، وأضيق مكان فيه من الغرب إلى الشرق هو الممتد من كالبرا، وأبوليا، ونابولي، والبندقية، وأحواز هذه الأماكن.

٦ — مخاطر البحر المتنوعة

وهكذا يتوجب على الذي يود السفر إلى الأرض المقدسة بحراً أن يركب سفينة من أية منطقة أو مدينة، أو ميناء، يقع اختياره عليه، وأنا أدع هذه المسألة إلى حرية اختياره، أما بالنسبة إلى الطعام، فليأخذ معه

بقدر ما يستطيع، أو بقدر ما لديه، وعلى العموم اعتاد الناس الذين يبحرون من الغرب إلى الشرق على التزود بأطعمة تكفي لمدة خمسين يوماً، على أنهم عندما يبحرون من الشرق إلى الغرب قد اعتادوا على التزود بأطعمة تكفي لمدة مائة يوم، لأن السفينة تطير وهي قادمة من الغرب إلى الشرق بريح طيبة، حيث أنها تقطع في الليل مسافات أكبر منها في النهار، حيث أنها تقطع مسافة خمسة عشر ميلاً في كل ساعة من اليوم، وسبب هذا أن البلاد الغربية باردة جداً، وكثيرة الرياح، وفي المقابل فإن البلاد الشرقية حارة جداً، وهي جميعاً بلا رياح، وبناء عليه يبحر الانسان ببطء أكثر على سطح البحر عندما يكون عائدًا، منه عندما يكون ذاهباً إلى هناك، وخاصة أن السفن الكبيرة الذاهبة من الغرب إلى الشرق اعتادت على العودة في شهري أيلول وتشرين أول، وتبدأ الغلايين والمراكب من هذا النوع بالاقلاع من هناك شروعاً من شهر آب، عندما يكون البحر هادئاً، لأن ما من مركب يمكنه أن يعبر البحر في تشرين الثاني، وكانون الأول، وكانون الثاني، بسبب العواصف، وعلى كل حال ما من مركب يستطيع — إلا بالنادر — العودة من دون تعب، ورعب، وخوف، وانزعاج، وحول هذا أنا متأكد وعارف تماماً، لأنني عشت مراراً ورأيت نفسي وسط العواصف العنيفة في البحر، وهي عواصف يصعب وصفها كلياً لأن ما من إنسان يمكنه أن يصف ذلك تماماً، كما أن ما من إنسان يمكنه أن يصدق بوجود مثل هذه العواصف الشديدة جداً في البحر، وفي الحقيقة إنني أعرف أن ذلك صحيحاً، لأن ما من صخرة أو رمل في قاع البحر إلا ويتحرك، إذا كان قابلاً للتحرك، وذلك عندما يثور البحر ويتقاذف هكذا، وقد تبرهن على صحة هذا الأمر بين الجزر، حيث يكون البحر ضيقاً، وحيث يكون هنالك عدداً هائلاً من الصخور يجري قذفها من شاطئ إلى شاطئ أثناء العواصف، وحدث في إحدى المرات أن رجلاً كان مسافراً قرب الساحل الأرمني بواسطة غليون، فثارت فجأة عاصفة في الليل، بسببها

جرى فقدان ثلاثة رجال، ووجدوا في الصباح أن الغليون كان مغطى برمل ساكته أكثر من ذراع، مما رماه البحر أثناء هياجه، وفيما يخص برعب البحر ومخاوفه التي تنشأ من أسباب متنوعة، رأيت من المفيد الحديث بعض الشيء حولهم.

٧ — الخطر الذي اسمه غولف Gulph

وتصدر المخاوف أولاً عن الرياح الطبيعية، وذلك كما سلف القول، ومثل ذلك عن الرياح الشديدة جداً، التي يطلق البحارة عليها في البحر اسم «غولف»، وهي التي تسير من الفجوات في الجبال، وهي لا تؤذي السفن ما لم تكن قريبة جداً، ففي سنة ١٣٤١ لتجسيد ربنا، وفي ليلة أحد، حيث كان يجري غناء Laetare Jerusalem (الأحد الرابع من الصوم الكبير)، وكنا وقتها مبحرين من الشرق، وكان لدينا ريح شرقية جيدة جداً، وبناء عليه انطلقت السفينة بأشعة ستة منشورة، تطير طوال الليل، لكن حدث عند الصباح المبكر، وكنا مبحرين نحو جبال أضايا، وكان البحارة جميعاً نيام، أن قذف هذا الغولف نفسه السفينة مع أشرعتها وضربها بعنف على جانبها، ودفعها نحو البحر، بحيث أن جميع الأشرعة تبللت، وسارت السفينة مائلة على طرفها إلى مسافة طويلة، ولو أن السفينة دفعت أكثر وجنحت على طرفها، لغرقنا جميعاً، وقطعنا على كل حال جميع الجبال، وربطنا جميع الأشرعة، حتى وازنت السفينة نفسها بعض الشيء، وهكذا نجونا بفضل نعمة الرب من ذلك الخطر العظيم.

٨ — الخطر الذي اسمه غروب Grup

وهناك أيضاً مخاطر أخرى في البحر، تصدر عن رياح غير طبيعية، ويطلق عليها البحارة اسم «غروب»، وهي تنشأ عن التقاء ريحين، وبسهولة يراها الرحالة قادمة، هذا ولقد ارتعبت كثيراً منها حتى بعد

انتهاء رحلتي، فضلاً عن هذا هناك مخاوف أخرى في البحر، من القرصان أو لصوص البحر، الذين يهاجمون واحدة من السفن مثلما يهاجم المقاتلون قلعة من القلاع، لكن هذا الرعب تناقص كثيراً منذ أن اختارت مدينة جنوا لنفسها دوجاً.

٩ — الرعب من الأماكن القليلة العمق

وهناك أيضاً مخاوف أخرى في البحر، يدعوها البحارة باسم الأماكن الضحلة، وبالنسبة لهذا الموضوع عليك أن تعلم أن البحر ليس بالعمق نفسه في كل مكان منه، لأنه يوجد في البحر جبال، وصخور، ونباتات، وحشائش خضراء مثلما هو موجود على اليابسة، وهذه الجبال والصخور هي عالية في بعض الأماكن، ومنخفضة في أماكن أخرى، ففي بعض الأماكن نادراً ما تكون الصخور والجبال مغطاة بشبر أو ذراع من الماء، ولهذا السبب ما من أحد يتجرأ على الابحار جنوباً باتجاه بلاد البربر، لوجود صخور كثيرة، وأماكن ضحلة قليلة العمق مغطاة بالماء، وهذه المخاطر مرعبة بشكل كبير في البحر، لأنه في مثل هذه الأوقات يتم العثور على كتل من أنواع النباتات مرمية على الشاطئ، وكذلك بعض المرجان، مما تقررص فروعه عندما تقذف من قاع البحر، لكنها تصقل بعد ذلك من قبل معلمي الحرف، والمرجان في البداية هو أبيض ويقرص، لكن جاذبية الشمس وأشعتها على قعر البحر، حيث ينمو، تجعله أحمر، والمرجان ينمو على شكل نبتة صغيرة لها ثمرة واحدة عالية، وعندما يجري رمي المرجان هكذا بكميات كبيرة وقذفهم من البحر، يقوم الناس بجمعهم وبيعهم وهم مايزالون يقرصون، ولقد رأيت في أحد البيوت من المرجان أكثر مما يستطيع خمسين حصاناً حمله، ولا أتجرأ أن أقول المزيد.

١٠ - المخاوف من السمك

ومثل هذا يوجد في البحر مخاوف أخرى، نادراً ما تقع إلا للسفن الصغيرة، والمعني بهذا المخاوف من الأسماك الكبار، وحول هذه الأسماك عليك أن تعرف سمكة خاصة يدعوها الاغريق باسم ترويا Troya البحر، ومعنى هذا الاسم أفعى البحر، وهي ينبغي أن تخاف كثيراً من قبل المراكب الصغيرة، لأن هذه نادراً - أو مطلقاً - ما تسبب أي أذى للسفن الكبيرة، ما لم يكن مضغوط عليها بسبب الجوع، وفي الحقيقة إذا ما أعطاهما البحارة خبزاً تفارق وهي راضية، لكنها إذا لم تفارق، فوقتها يمكن أن تكون مخيفة، ومن الممكن جعلها تهرب برؤية إنسان غاضب وله وجه متجهم، وعلى كل حال على الانسان أن يكون على درجة عالية من الحذر، عندما ينظر إلى السمكة هكذا، وأن لا يكون خائفاً منها، بل عليه أن يحدق بها بوجه جريء ومظهر مرعب، لأن السمكة إذا ما رأت الانسان خائفاً فإنها لن تفارق، بل تقوم بعض السفينة وتمزيقها بقدر ما تستطيع، وعلى كل حال، إذا ما نظر الانسان بجراًة، وبتوحش نحو السمكة مع ملامح وجه غاضب، فإن السمكة تشعر بالرعب وتغادر وتبتعد عن السفينة، ولقد حدثني بحار متميز جداً، أنه عندما كان شاباً، واجه الرعب مع هذه السمكة في مركب صغير، وكان معه في السفينة شاب اعتقد بنفسه أنه فائق الشجاعة وحاد، وبناء عليه عندما قابل السمكة لم يعطها خبزاً، بسبب الشجاعة التي اعتقد أنه يمتلكها، وأنزل نفسه بوساطة حبل من السفينة إلى الماء، ليحدق بالسمكة بوجه غاضب، كما هي العادة، غير أنه عندما رأى السمكة ارتعب على الفور وصرخ لرفاقه ليسحبوه ويرفعوه بوساطة الحبل، ولدى رؤية السمكة الرجل الخائف، قفزت من الماء وهو يسحب نحو الأعلى، وبعضة واحدة التهمت نصف الرجل من أمعائه نحو الأسفل، ومن ثم ابتعدت عن السفينة، ومع هذا قد قيل بأن هذه

السمة ليست طويلة بقدر ما يستطيع أن يرمي إنسان حجرة، كما أنها ليست عريضة لكن رأسها ضخم جداً وعريض، وكل الأذى الذي تلحقه بالسفن تلحقه بعضها وبتمزيقها.

وسمعت أيضاً من بحار آخر صادق جداً، كان يعرف جميع ممرات البحر تقريباً، وهو أيضاً كان قد تعرض إلى عدد لا يحصى من المخاوف المرعبة، من مختلف الأنواع في البحر، وقد أخبرني هذا الرجل نفسه أنه قد أرغم بوساطة ريح معاكسة، على الابحار في أماكن كان الابحار فيها مرعب جداً، وذلك بسبب الصخور، وقرب قاع الأرض التي كانت بالكاد مغطاة بالماء، وعندما لم يكن بعيداً عن مثل هذه الأماكن، لم يكن قادراً على إيجاد قعر عميق على بعد عشرة آلاف ذراع، وعندما كانت السفينة مبحرة في هذه الأماكن مع أعظم قدر ممكن من الخوف والخطر، حدث أن السفينة مرت على سمكة اسمها عند الفرنسيين Melar ، كانت مختبئة بين الصخور هناك، وعندما شعرت السمكة أن السفينة مقبلة نحوها، تصورت أنها وحش عظيم من الممكن ابتلاعه، وفتحت فمها، وأعطت السفينة عضة كبيرة جداً، ومع أن السفينة كانت محملة كثيراً، فقد دفعت إلى الخلف مسافة كبيرة. واستفاق الناس، الذين كانوا على ظهرها بسبب تلك العضة والصدمة، وعندما أدرك البحار أن السفينة اصطدمت بعقبة لا يمكن تجاوزها، صرخ إلى الناس الذين كانوا في السفينة ليصلوا إلى الرب من أجل أرواحهم، وكان قد اعتقد بأنه لم يكن هناك أمل ببقائهم أحياء، حيث كان موقناً بأن السفينة لا بد أنها اصطدمت بصخرة عظيمة، وعلى الفور نزل البحارة والخدم التابعين للسفينة إلى قبوها، راغبين في أن يروا المكان الذي خرقت فيه السفينة، فوجدوا أن سن سمكة سميك عريض مثل جذع شجرة، وطوله ثلاثة أذرعاً قد خرقت السفينة، وقد حاولوا أن يتزعموا ذلك الجزء من السن بأدوات معدنية، فلم يستطيعوا، فقاموا بقطعه بالمنشار على سوية طرف

السفينة، وليس هنالك من شك أن السفينة كانت ستتحطم لولا أن هذا السن كان حاداً إلى درجة مكنته من خرقها بذلك الشكل المدهش، وفي الوقت الذي أتأمل فيه حول طول وعرض مثل هذه السمكة، أخبرني البحار نفسه بأن لا أندھش، لأن في البحر سمكة طولها ميل، وعرضها أربعة آلاف وستمائة ميل (ذراع؟) وذلك في أضيقت مكان فيها، وهناك أيضاً في بركة صغيرة لا يتجاوز عرضها رمية سهم توجد سمكة طولها ذراع، وهي غالباً ما تصاد، ولقد رأيت ثلاث سمكات من هذا النوع خارج سردينيا، وكانوا يندفعون خارج الماء أثناء تنفسهم إلى مسافة بعيدة، أكثر مما يستطيع قوس أن يرمي نشابته، وكانوا يصدرون صراخاً مثل الرعد، فضلاً عن هذا، في أيامي، عندما كنت قريباً من جزيرة طرطوس، كانت هناك سمكة، حينما أخذت بالاصطدام بسمكات أصغر رمت بنفسها على اليابسة، وسأقت أمامها موجة عظيمة من الماء، وعندما عادت المياه إلى البحر، بقيت السمكة على اليابسة، وأطعمت جميع السكان هناك في تلك المناطق بلحمها ودهنها، لكن ليس بعد أمد طويل، عندما ازدادت درجة حرارة الشمس، تسمت المنطقة كلها ببتن السمكة عندما تعفنت، ولمدة طويلة كان من الممكن رؤية الهيكل العظمي للسمكة عن بعد، مثل بيت كبير، وأطراف منه تحركها الرياح، وبعد بعض الوقت تحطم هذا الهيكل ونقلته العواصف والزوابع نحو الأسفل ولقد سمعت من كثير من الناس من أهل المعرفة أنه يوجد في البحر حوت طويل جداً.

١١ - أنواع الأسماك

ومثل هذا يوجد في البحر كثير من أنواع السمك، من مختلف الأشكال، من الكبير والصغير، بعضها لها ألوان واحدة، ومظهر، وشكل، وترتيب، وبعضها بأجنحة، وبعضها بلا أجنحة، ولا يمكن فهم طبيعة هؤلاء جميعاً من قبل العقل البشري، وبين هذه الأنواع جميعاً

هناك أنواع بالفعل مذهشة جداً، يرفعن أنفسهن مسافة طويلة جداً خارج الماء، ويمكن لبعضهن أن يجرين طائرات على مستوى وجه الماء لمسافات طويلة مثل الخفاشات، لكنني لست متأكداً كم يستطعن أن يطرن، وإلى أية مسافة.

ولقد سألت يالحاح البحارة العارفين: من أين تأتي هذه الأسماك؟ وقد أجابوني أنه ينمو على شاطئ البحر في إنكلترا وإيرلندا أشجار جميلة جداً تحمل فاكهة تشبه التفاح، ويعيش في هذه التفاحات حشرات، وعندما تنضج التفاحات، يسقطن على الأرض، فيتحطمن بعملية السقوط هذه، وتطير من داخلها حشرات، لأن لها أجنحة مثل النحل، والحشرات اللائي يلمسن الأرض أولاً يغدون مخلوقات هوائية، ويطرن هنا وهناك مع الطيور السماوية الأخرى، لكن ما أن تلمس هذه المخلوقات الماء حتى يتحولن إلى مخلوقات مائية ويسبحن مثل الأسماك، غير أنهن يجلن في أماكن أخرى ويدربن أنفسهن على الطيران، لكن يبقى هل يخلقن هكذا على الأشجار، إنني لأعرف أكثر مما سمعته في هذه الحكاية، إنما هن يؤكلن مثل الأسماك، ويرون وهن طائرات من قبل الناس الذين يرتحلون في البحر.

١٢ — هجرة الطيور

وعليك أن تعرف أنه في موسم محدد، تقوم أعداد عظيمة من الطيور من جميع الأنواع، من كبير وصغير، بالارتحال عبر البحر من الغرب إلى الشرق، وتعود ثانية، وبشكل خاص طيور: السنونو، والسلوى والغرنوق، وأعداد لا تحصى من الطيور من جميع الأنواع والألوان، سواء ما كان منها كبيراً أو صغيراً، الله وحده يعرف أسماها وأعدادها، وهم يطرون على طريقهم من جزيرة إلى جزيرة، ويصبحوا ليسوا أكثر من عظم وريش، ويبلغ بهم حد الانهاك إلى عدم الاهتمام بالحجارة والنشاب، وقد أمسكت بعضاً من طيور السنونو ... على ظهر السفينة،

لكن سرعان ما ماتوا، ومع هذا إنني لم أر مطلقاً في جميع المناطق التي كنت فيها فيما وراء البحار طائر اللقلق، لكن رأيت مرة في دير للموارنة لقلقاً، عدده مدهشاً في حجمه، ولقد سُئلت يوماً عما إذا كانت طيور السنونو تقضي الشتاء في بلادي، فأجبت: لا، إنما بالنسبة لبلادي، تأتي هذه الطيور إليها في آذار، إنما وهذه الطيور هناك ما من أحد يعرف من أين جاءت، وقد حدث في مرة من المرات، أنه في واحد من قصور أحد السادة الكبار، كان الحاجب نائماً فوق منضدة عندما جاء اثنان من طيور السنونو، وهما يتخاصمان حول عش، ووصلا في التخاصم إلى حد أنهما أخذتا بعض بعضهما بعضاً، وهكذا سقط كلاهما على وجهه وهو نائم، فأمسك بهما بشدة، ثم وضع حول كل واحد منهما طوقاً، وقد كانا يأتيان في كل سنة ويعودان إلى عشهما مع هذين الطوقين نفسيهما، ويأتمني أن أروي حكايات طويلة جداً حول أنواع أخرى من الطيور، من الصغير والكبير، ممن يقوم بعبور البحر في أوقاتهم الخاصة، إنما لا بد لي من العودة إلى موضوعي، وأن لا أكتب المزيد حول مثل هذه المسائل.

١٣ — الرحلة عبر البحر — طروادة والجزر

وعلى هذا كل من يود زيارة الأرض المقدسة، أو أي مكان من بلاد ما وراء البحار، لا بد له من السفر إلى هناك بسفينة أو بغليون، وإذا ما سافر في سفينة، فإنه وقتها يجوز مباشرة عبر البحر، دون أن يتوقف في أي ميناء ما لم يكن مرغماً على فعل ذلك، بسبب رياح مضادة، أو طلباً للأطعمة، أو وجود قضية ضرورية جداً، وهكذا فإنه يخلف بلاد الجزائر على يمينه باتجاه الجنوب، ويترك بلاد الاغريق على يساره باتجاه الشمال، ويحصل على مشهد عن بعد لكثير من الجزر الشهيرة من ذلك: كورسيكا، وسردينيا، وصقلية، ومالطة، وغوي Goy ، وسكارب Scarpe، وكريت ورودس، وجزر أخرى كثيرة، صغيرة وكبيرة، لكنه إذا ما أراد العبور في غليون، عليك أن تعرف أن الغليون هو نوع

من المراكب المستطيلة، التي ترتحل من شاطئ إلى آخر، وتبقى مبحرة على مقربة من الشاطئ، وتتوقف في مرسى على الشاطئ في الليل، ولها ستين مقعداً على كل جانب، ولكل مقعد ثلاثة من البحارة معهم ثلاثة مجاذيف، ورامي قوس واحد، وعلى ظهر الغليون يجري دوماً أكل أطعمة جديدة، وهذا أمر لا يمكن القيام به على ظهر السفينة، وعندما يكون الغليون على هذه الصورة على محاذة الشاطئ، يمكن للانسان أن يرى ما لا يحصى من الأماكن الفاتحة الجمال، والمدن، والبلدات، والقلاع، وخاصة تلك الأماكن كلها التي يمكن رؤيتها من السفينة عن بعد، فهي الآن تشاهد من خلال الغليون عن قرب، وهي تمر أمام العين دقيقة دقيقة، وعلى هذا، من الممكن القول تقريباً، أنه في الغليون من الممكن رؤية شواطئ ما حول الجزء الشمالي من العالم، وذلك كما سنرى فيما بعد، وأما الانسان مسافر هكذا في غليون من مكان إلى مكان آخر، ومن ميناء إلى ميناء آخر، يمكنه الوصول الى القسطنطينية التي كنت قد حدثتكم عنها، وبعد مغادرة تلك المدينة، يصل الانسان وهو نازل على محاذة ساحل آسيا الصغرى إلى المكان الذي قامت فيه فيما مضى مدينة طروادة الجليية جداً، والتي لم يبق منها أثر يمكن رؤيته، اللهم إلا باستثناء بعض الأساسات تحت ماء البحر، وكذلك في بعض الأماكن بعض الحجارة القليلة وبعض الأعمدة الرخامية المدفونة في الأرض، التي عندما يعثر عليها يجري نقلها وأخذها إلى أماكن أخرى، وفي هذا المقام عليك أن تعرف، أنه لا يوجد في البندقية عمود حجري أو أي حجرة جيدة القطع والصنعة لم تكن قد جلبت إليها من طروادة، هذا وقد بني إلى جانب المكان الذي قامت فيه طروادة فيما مضى مدينة صغيرة، اسمها أيوس ياموس Ayos Yamos، وذلك باللغة الاغريقية، وكانت مدينة طروادة قائمة على شاطئ البحر في منطقة اسمها فريجيا، وهي ليست بعيدة عن خلقدونية، لكن كما يبدو لم تملك ميناء جيداً، وعندما يسافر الانسان في غليون من طروادة يرى شواطئ

لومبارديا، وشمبانيا، وكلبيريا، وأبوليا، ويصل الانسان إلى جزيرة اسمها كورسيكا، وحدث أنه قرب هذه الجزيرة جرى اغراق سفينة القديس بولس الرسول، وذلك بعدما قدم التماساً إلى قيصر، بعد ما جرى اعتقاله في اليهودية، وهناك أيضاً، حدث في المساء، عندما كان جالساً أمام النار في النزل جرى قرصه من قبل أفعى خبيثة، ونجا دون أن يصاب بأذى، وذلك كما نقرأ في أعمال الرسل، وما زال يسكن في تلك الجزيرة أناس يتفاخرون بأنهم من أسرة صاحب النزل، الذي نزل في نزله ما نزل من هذه الأشياء بالقديس بولس، وهؤلاء الناس قد منحوا القدرة على الشفاء ببصاقهم أي واحد جرى قرصه من قبل أفعى أو صلّ، وعندما يريدون ممارسة هذه القدرة مع أي انسان، يأخذون أولاً كأساً مليئاً من الخمرة، ويشربون منها أولاً ثم يضعون فيها كمية من البصاق، وإذا ما كان الذي أعطيت الكأس له قد رفضتها نفسه وأصيب بالغيثان، يمزجون تربة مع الخمرة، ويعطونها إلى المحتاج إليها، حيث يتلقى هذه القدرة، أو النعمة وهو يقول: «خذ يا هذا القدرة والنعمة التي أضعفت علينا من قبل الرب وعلى أولادنا، تشریفاً لبولس الرسول، الأمر الذي منحك إياه ونضفيه عليك باسمه، حتى يكون بمقدورك إذا ما قرصت من قبل أفعى أو صلّ، أو من قبل أي من الهوام السامة والمؤذية، أن تشفي نفسك ببصاقتك، وتعالجها، إنما دون أن تعالج شخصاً آخر، ونقوم بمنحك هذا من دون أخذ أية مكافأة مقابل ذلك، ونحن نعطيك ذلك من أجل الرب، باسم الأب والابن وروح القدس، آمين»، وإذا ما قام أي انسان بمعالجة انسان آخر إلى جانب نفسه يفقد على الفور قدرته، إنما في الوقت نفسه تفيد الذي تولى معالجته، ويبحر الانسان من جزيرة كورسيكا هذه إلى سردينية، وهي جزيرة جلييلة جداً، ذات تربة جيدة وخصبة، مليئة بالقطعان، والسائمة، لكنها من دون خمرة، حيث تجلب إليها من أماكن أخرى، ومن المقرر أن جسد القديس اوغسطين يرقد في هذه الجزيرة، لكن (لوتبراند Luitprand) نقله

(في سنة ٧٢٥) إلى بافيا Pavia ، وقد ولد في هذه الجزيرة أيضاً القديس مكاروريوس الذي كان بارزاً جداً بين النساك، وكانت هذه الجزيرة تابعة للبيازنة، لكن ملك أراغون انتزعها منهم بالقوة، وهي لا تحتوي على كثير من المدن، بل فيها مدينة واحدة اسمها قلعة دي كال Cal، وإلى جانب هذه المدينة قلعة اسمها بوناير Bonayr، وكنا في يوم الصعود من سنة ١٣٤١، قد دفعنا بقوة نحو هذه الجزيرة، وذلك من قبل ربح عاصفة شديدة وقاسية ثارت بشكل مفاجيء، وكنا وقتها في سفينة كبيرة جداً، وإثر هذا اقتضى منا الأمر خمسة عشر يوماً حتى عوضنا المسافة التي كنا قد سرناها قبل العاصفة منذ الساعة السادسة حتى وقت العشاء، ولا يتذكر الشيوخ في أيامنا هذه عاصفة مثل هذه العاصفة العظيمة في البحر، وفي الليلة التي دفعنا فيها إلى هناك، وجد ثلاث وأربعون سفينة أخرى كبيرة قد تجمعت هناك، وكانت مثلنا أنفسنا، قد دفعت إلى هناك من مختلف أطراف البحر، وذلك مع عدد لا يحصى من المراكب الأخرى، من الأحجام الصغيرة والكبيرة، وبعضها كان قد رمى بحمولته، وبعضها الآخر كان قد تحطم، وبين تلك السفن جميعاً جاءت أعظم سفينة في العالم من نابل، وكانت محملة بألف برميل من الخمر، وذلك من ذوات الحجم الأكبر من نوعه، مع أكثر من ستائة رجل ومختلف أنواع التجارات، وكانت أخذه طريقها إلى القسطنطينية، غير أنها صدت بقوة العاصفة وعنقها، وجزيرة سردينيا هذه مجاورة لجزيرة أخرى صغيرة اسمها سوبر Sauper ، أي أن تقول جزيرة القديس بطرس، حيث يوجد عليها خيول وحشية، وهي صغيرة جداً، وعظيمة الجمال، ولسرعتهم من غير الممكن امساكهم، إلا من قبل اللصوص الذين يطلقون السهام عليهم ويأكلونهم من أجل التمتع بلحم الطرائد، والبحر بين هذه الجزيرة وبروفانس خطير جداً، ويطلق البحارة على هذه المنطقة اسم خليج ليون، ومعنى ذلك «غضب الأسد»، لأنه إذا كان من الممكن أن تستطيع سفينة ما الأبحار بسلام

على ظهر بقية البحر، إنها لن تتمكن من عبور هذا المضيق البحري من دون مواجهة عواصف عظيمة، ومخاطر، ورعب، ولهذا السبب أطلق على هذا المكان نفسه اسم خليج ليون، ومن جزيرة سردينية هذه يستطيع الناس الإبحار إلى جزيرة صقلية، وهي بلاد جلييلة جداً، مساحتها حوالي الثمانين ميلاً، وهذه مملكة عظيمة جداً، وهذه الجزيرة أعظم خصباً من جميع البلاد المجاورة، لأنه عندما يكون هناك انحباس للمطر، وجفاف وقحط في جميع بلدان وأقطار ما وراء البحر، نجد هذه المناطق يجري اطعامها ومساعدتها من قبل صقلية لوحدها.

١٤ - جزيرة صقلية

وفي مملكة صقلية سبع أسقفيات ومطرانية واحدة، مطرانها رئيس أساقفة مونريال، الذي هو في أيامي راهب ماروني، فضلاً عن هذا تمتلك صقلية عدداً كبيراً من المدن الحصينة جداً والجليلة، والمواقع الحصينة والبلدات، ولاسيما المدن الأكثر جمالاً والأعظم حصانة الموجودة على شاطئ البحر، فكل واحدة من هذه المدن لها ميناء، ومن هذه المدن: مسينا، وبلرم، وطبرمين، والقنطرة، ويسكن في القنطرة رهبان دومينكان، لديهم صورة للعذراء مريم المباركة في أيام البشارة، وهذه الصورة يبجلها أهل المدينة كثيراً، ومثلهم يفعل الذين يبحرون على ظهر البحر، لأن ما من سفينة تعبر من هناك إلا وتقف على مسافة محددة لتقدم التبجيل لهذه الصورة ولزيارتها، ويجبرون الانسان - ويعتقدون بشكل حازم - أن أية سفينة ستعبر دون تحية هذه الصورة أو زيارتها، سوف لن تصل إلى وطنها، من دون أن تواجه عاصفة، وواجهت القديسة أغاثا في مدينة القنطرة الشهادة، وجسدها كله راقد هناك، وهي محترمة كثيراً، وتحرس بعناية كبيرة، لأنه بفضل محاسنها يصنع الرب يوماً كثيراً من المعجزات في جميع أرجاء صقلية، وعلى مقربة من مدينة القنطرة هذه يقوم جبل منفرد عالي الارتفاع كثيراً،

ويطلق عليه الذين يسكنون هناك اسم جبل بيل Bel، أي أن تقول الجبل الجميل، ولا يتوقف هذا الجبل عن اصدار اللهب والدخان وكأنه فرن ناري، ويقذف صخوراً محترقة بحجم بيت صغير، ويطلق عليها سكان تلك المناطق اسم أحجار الخفاف، وبها يجري صقل الرق للكتابة، وهذه مع المقذوفات الأخرى التي يرمي بها الجبل تتجمع وتتكوم بوساطة الريح، حتى تشكل ما يمكن دعوته جبلاً عظيمة وطويلة، ومن هذا الجبل تدفق نهر النار الذي قرأنا عنه في آلام القديسة أغاثا، حيث قالوا: «وقد أقاموا ظلة حاجزة لإبقاء النار بعيداً»، ومن الممكن رؤية مجرى هذا النهر بوضوح في هذه الأيام، وعلى كل حال لقد تدفق نهر من النار مشابه مراراً منذ أيام القديسة أغاثا، وإلى هذه الأيام نجده يتدفق أحياناً، وفي الحقيقة جرى دمار جزء كبير من صقلية بأبواب النار هذه، وبأحجار الخفاف، التي قذفت من الجبل، لأنه عندما يبرد النهر، تصبح هذه الأحجار قاسية، من غير الممكن تكسيرها بأدوات حديدية أو أية أدوات مهما كان نوعها، ولقد قيل يوجد في هذا الجبل فم الجحيم، وما من شك يوجد بعض الحقيقة في هذه الحكاية، فلقد تبرهن وتقرر بوساطة عدد من الأصوات، والمعجزات، والأمثلة في اليوم الحاضر، وفي التواريخ القديمة للمملكة، أنه في أي وقت وجدت فيه أية معارك كبيرة، في أي مكان، يرسل الجبل نفسه اللهب عالياً حتى عنان السماء نفسها، وبناء عليه فإن الذين يسكنون صقلية يعرفون أن هناك معارك حقيقية يجري القتال فيها في بعض أقطار العالم.

ولقد أخبرني راهب ماروني، قد سكن لوقت طويل في جزيرة صقلية، أن فيما لديه من معلومات حدث أنه عندما كان الامبراطور هنري [السابع]، صاحب الذكرى الطيبة والبيازنة يقاتلان ضد الملك روبرت في جبل كاشيم Cachym [سنة ١٣١٥]، وهي الحرب التي قتل فيها أخو الملك روبرت، وهو مدفون حتى هذا اليوم في بيزا تحت

ضريح الامبراطور المتقدم الذكر، ففي تلك الليلة التهب هذا الجبل، وكان مضيئاً طوال ليلة المعركة إلى حد أن رهبان مسينا، الواقعة على مسافة عشرين ميلاً عن هذا الجبل، قد قرأوا نصوص قداسات المساء لديهم على ضوء ذلك اللهب.

وقد أعلن أن الشيء نفسه قد وقع بالذات عندما كانت هناك حرب بين الفلورنسيين والبيازنة في جبال الألب، وقد حدثني هذا الراهب بكثير من الحكايات المدهشة حول هذا الجبل، تحتاج إلى وقت طويل لحكايتها، ولهذا السبب هناك مثل سائر في صقلية يقول: «إنني أفضل أن أكون في جبل بيل مع الملوك والأمراء على أن أكون في السماء مع المعاقين والعميان»، والمعنى هنا واضح، لأن الرجال هنا أشرار بالمرّة، لكن النساء جميلات جداً، وموضع اعجاب عظيم، ويارسون في صقلية ثلاثة أنواع من العبادات مختلفة: ففي القسم الأول يارسون الطقوس اللاتينية، وفي القسم الثاني يارسون طقوس الاغريق، وفي الثالث يارسون شعائر المسلمين، ومع أنهم جميعاً مسيحيين، هم على كل حال مختلفون وغير متفقين في عقائدهم وممارساتهم، وإنه لأمر مدهش كثيراً أن تكون صقلية إلى هذه الدرجة بلاداً خصبة وجذابة، مع أنها تعاني دوماً من مثل هذا الدمار المرعب من هذا الجبل، لأنه يحدث أن يقذف كميات هائلة من الرماد في يوم أو يومين، فلاتستطيع السائمة لمدة طويلة أن تجد أي مرعى، وزيادة على هذا، يحدث في بعض الأحيان أن تتدفق عدة أنهار من النار واللهب، وكذلك من الأشياء الأخرى المرعبة، وتنحدر من الجبل، ولهذا يقوم الذين يسكنون هناك بالصوم وتقديم النذور، متوقعين أنهم سوف يؤخذون سريعاً إلى الجحيم، وتجري هذه الأنهار منحدره من الجبل مثل نحاس ذائب يغلي، وتتولى النار استهلاك كل شيء تجده على طريقها، سواء أكان حجراً أم خشباً، وذلك مثلما تتولى المياه الحارة تذويب الثلج وإزالته، وتدمر البلاد في

بعض الأماكن لمسافة ميلين، وذلك حسب طبيعة الأرض منخفضة كانت أو مرتفعة، وتجعلها صحراء، لا يمكن سكنها إلى الأبد، وعلى هذا إن صقلية بلاداً فائقة الجودة، ومع هذا هي مرعبة أن تسكن فيها.

١٥ - جبل البركان

ومثل هذا يوجد على مقربة من صقلية جزيرة أخرى صغيرة، فيها جبل واحد فقط، وعند سفح هذا الجبل هناك حديقة هي الأكثر جمالاً وبهاءً، واسم هذا الجبل لدى السكان المحليين جبل البركان، وهو يقوم فجأة مثل فرن بصب اللهب المحرق، بشكل أكثر إرعاباً من جبل بيل، وقد قرأنا بأن هذا الجبل كان يقوم فيما مضى في صقلية، غير أنه بفضل الرسول القديس برثلميومى رمى نفسه في البحر، ونقل نفسه من اليابسة، ولهبه مرعب إلى أقصى الحدود والعنف، وهو يقذف بصخور الخفاف التي من حجم بيوت صغيرة في الهواء، مثلما يفعل المنجنيق، وذلك بقوة هائلة إلى حد أنهم يتفجرون بالهواء مثل التفاح، وتسقط بعض القطع في البحر على بعد حوالي النصف ميل عن هناك، فتقذفها الأمواج على الشاطئ، وتتجمع هناك، وحجارة الخفاف هذه هي التي يستخدمها الكتاب في صقل الرق للكتابة، والذي يذكره بعضهم أنه يتشكل من زبد البحر، هو غير صحيح، حسبما جرى اخبارك، وحدث مرة قبل أن أذهب إلى صقلية، أن النار تفجرت في الحديقة عند سفح جبل البركان، وكان مقدار اتساعها رمية حجر، ولمدة أربعة أيام وأربع ليال ظل اللهب يتصاعد إلى السماء، من الطول ومن العرض، وذلك بشكل مرعب إلى حد أن جميع الناس خيل اليهم أن السماء حقاً والأرض كانتا تشتعلان، وأنه جاء ميعاد اليوم الذي سيفارقون به الحياة، وعندما توقف اللهب، استمر الرماد يتساقط لمدة أربعة أيام وأربع ليال أخرى، إلى حد أن كثيراً من الأماكن والبلدات والمدن هجرها الناس، وغادروها مع كل ما يملكون، وهربوا إلى الجبال ليخبئوا أنفسهم وليحموها من

الرماد حسب أفضل ما هو بإمكاناتهم، ولقد هلكت جميع القطعان وأعداد كبيرة جداً من الناس في السهول بفعل الرماد، وغدت مدن كثيرة، لا يمكن رؤيتها البتة، لأنها غطيت بكثافة بالرماد، وجف كثير من الانهار بفعل الرماد، وكان لذلك حزن وأسى في صقلية كلها في ذلك الحين، بشكل لا يمكن لانسان أن يتذكر مثيله، أو تحدث التاريخ القديم عن مثله، ولهذا قام الصقليون فعقدوا النذور للرب، وأعلنوا الصيام، وأسلموا أنفسهم إلى أعمال التوبة، وصلوا إلى الرب حتى يزيل عنهم غضبه، وأن يقوم من أجل فضائل القديسة أغاثا بتحريرهم من هذا الغضب العظيم، وبناء عليه انتهى الرعب والاضطراب على الفور، ولم يشعروا بعد ذلك بأي من هذا النوع، وقاموا بعد ذلك بتحريم صنع عدد كبير من الأعمال الشريرة التي كان مسموحاً بها حتى ذلك الحين تحت تهديد إنزال أقسى العقوبات.

١٦ — مدينة سرقوسة

ويوجد في صقلية مدينة أخرى، اسمها سرقوسة، فيها واجهت القديسة لوسيا Lucia الشهادة، وفيها يرقد جسدها كله، هذا ويوجد هناك أيضاً عدد لا يحصى من آثار القديسين المبجلين، ولسوف أحتاج إلى وقت طويل جداً لأحدثكم عن المزيد من عجائب صقلية، وعن أمجاد وقصور الامبراطور فردريك، وعن اصطياد السمك الذي اسمه الطون، وعن المصادر الأخرى لثرواتها وازدهارها.

وعلى مقربة من صقلية هناك جزائر أخرى كثيرة، كبيرة وصغيرة، مسكونة من قبل المسلمين، ويوجد على مقربة منها هناك جزيرة أخرى اسمها مالطة، وفيها أسقفية واحدة، وقد زرتها مراراً أثناء العبور، وعلى مقربة منها هناك جزيرة أخرى اسمها كولمات Colmat، فيها حفر كثيرة للأرانب، إلى حد أنه لم يبق للسكان ما يكفيهم من أرض للعيش عليها، وعلى مقربة منها هناك أيضاً جزيرة أخرى صغيرة اسمها سكولا

Scola وما من أحد يزور هاتين الجزيرتين الصغيرتين إلا الذي يقوم برحلة خاصة إليهما، وإلى جانب هاتين الجزيرتين، هناك أيضاً جزيرة أخرى اسمها غوي Goy (غوزو Gozo) يوجد فيها كثير من القطعان، ومنتجات الحليب، وقد أبحرت مرة بين هذه الجزيرة والجزيرة الأخرى في حالة رعب كبيرة، وكنت في سفينة كبيرة، في أثناء أكثر العواصف عنفاً، وما من أحد يتذكر أن سفينة بمثل هذا الحجم الكبير قد سارت قط خلال ذلك الطريق.

١٧ - آخيا

ولدى متابعة السفر من صقلية، يعبر الانسان خليج البندقية، الذي يفصل البندقية عن اليونان، ولدى ابحار الانسان على محاذة شواطئ بلاد اليونان وملتفاً حولها، يصل إلى آخيا ومقدونية، ومناطق أخرى من بلاد الاغريق، يطلق عليها اسم رومانيا، وعليك أن تعرف أن البلاد التي كانت تعرف باسم آخيا اسمها الآن المورة، وقد استولى القپالونيون على هذه البلاد بالقوة، وفصلوها عن بلاد الاغريق، ويوجد هناك مدينة جميلة اسمها بتراس Patras فيها واجه القديس أندرو الشهادة، فضلاً عن هذا فإن القديس انطوني وعدد كبير آخر من القديسين قد سكنوا فيها مضي هناك، أو ولدوا في تلك البلاد، وليس بعيداً عن بتراس توجد أثينا، التي ازدهرت فيها مضي مدارس الاغريق، ولقد كانت هذه في الأيام الخوالي مدينة جليلة جداً، لكنها الآن تكاد أن تكون مهجورة، هذا ومن النادر أن تجد في أي مكان في جنوا عموداً رخامياً أو قطعة جيدة من الحجر المنحوت، هي لم تجلب إلى هناك من أثينا، فالمدينة كلها قد بنيت من أحجار أثينا، مثلما بنيت البندقية من حجارة طروادة، ويوجد في أراضي آخيا هذه نفسها مدينة كورنثا الفاتكة الجمال والحصانة، وهي قائمة على ذروة جبل، ومثل هذه المدينة بحصانتها وقوتها نادراً ما سمع بشييه لها، لأنه لو قام العالم كله

بحصارها، لن تشعر مطلقاً بالحاجة إلى القمح، والخمر، والزيت والماء، وإلى هذه المدينة كان القديس بولس قد كتب عدداً من الرسائل، وليس بعيداً عن كورنثا تقوم مدينة غلاطية التي إليها كتب القديس بولس رسائلاً، و«غلا» بالاغريقية تعني ما تعنيه كلمة لاک Lac (حليب) باللاتينية، ذلك أن الذين يسكنون هناك هم أكثر بياضاً من الأناس الآخرين من حولهم، وذلك من طبيعة المكان، هذا وإن هذه المدينة التي عرفت فيما مضى باسم غلاطية، تعرف الآن باسم بيرا Pera، فضلاً عن هذا يسكن في آخيا— أو المورة— رهبان من طائفة التيوتون، وهم يمتلكون هناك قلاعاً في غاية الحصانة، وهم دوماً على خلاف مع دوق أثينا والاعريق، وعندما يتابع الانسان ترحاله من آخيا، أو المورة، يمر بعدد من الجزر الاغريقية، وذلك لدى ابحاره على طول ساحل آسيا الصغرى، ويصل الانسان إلى جزيرة اسمها كيوس، التي هي جزيرة متميزة بشكل خاص، فهناك ينمو المسطكى، ولا ينمو في مكان آخر في العالم، حيث صحيح أن أشجارها تنمو بما فيه الكفاية في أماكن أخرى، لكن لا يوجد عليها ثمار، وينمو المسطكى مثل الصمغ، ويتساقط من الأشجار، ومن هناك يرسل إلى جميع أنحاء العالم، ولهذه الجزيرة أسقف، كان في أيامي من طائفة الدومينيكان، وقد انتزعت هذه الجزيرة بالقوة من امبراطور القسطنطينية من قبل أخوين جنويين، وفيما بعد وقع خصام بين هذين الأخوين، فتخلى واحد منهما سراً عن حصته وأعادها إلى الامبراطور، واعتقل أخاه، وأبقاه لمدة طويلة في السجن، فانتزع الامبراطور الجزيرة منها معاً، لكنه في أيامي أدخل الأخ السجين في حظوته، وجعله قائداً لجيشه، وأعطاه بعض القلاع، ومن كيوس يبحر الانسان إلى جزيرة بطمس Patmos، التي إليها جرى نفي القديس يوحنا الانجيلي من قبل دوميشيان، وهناك رأى السموات مفتوحة فكتب سفر الرؤيا، ويمكنك الابحار من بطمس على محاذة ساحل آسيا الصغرى، والوصول إلى إفسوس إذا كنت ترغب بذلك، وهذه البلاد

التي كانت تعرف من قبل باسم آسيا الصغرى، تعرف الآن باسم تركيا، لأن الأتراك انتزعوها من الاغريق، وعليك أن تعرف أن الأتراك رجال سود طوال، وهم مسلمون متحمسون، مع انهم ليسوا من أصل عربي، وهم بالحري مسيحيون مرتدون، وهم يشبهون من جميع الجوانب الفريزيين، ويسكنون إلى جانب شواطئ بحر الشمال (كذا) في قلاع حصينة جداً، انتزعوها من الاغريق، وليس لديهم سلاح سوى القوس والنشاب، ويعيشون على الحليب وما شابهه، ويتجولون هنا وهناك مع قطعانهم، وفي كل اتجاه، وهم لهم عادات الفريزيين نفسها.

١٨ - مدينة إفسوس

عليك أن تعرف أن مدينة إفسوس الحقيقية تبعد أربعة أميال قصيرة عن البحر، ويوجد في هذه المدينة كنيسة جميلة بنيت على شكل صليب، وهي مسقوفة بالرصاص، وهي مزينة بشكل بهي بأعمال الفسيفساء والرخام، وهي موجودة حتى هذا اليوم، وهنا حدث أن ذلك الرسول المحبوب عندما تجبأ لعيد من الأعياد، دخل إلى ضريح، كان الظلام مخيباً عليه، ولم ير بعد ذلك مطلقاً، وهذا الضريح على مقربة من مذبح مرتفع، والمكان الذي حفر فيه الصخر ونحت ظاهر مرئي للذين يريدون الدخول إليه شرط أن يدفعوا أولاً فلساً إلى الأتراك، ويبيع الأتراك الآن في الكنيسة الحرير، والصوف، والقمح وماشابه ذلك من البضائع، وكانت مدينة إفسوس تقوم فيها مضي وفق شكل غريب، وذلك بين جبلين، وعلى هذا فإن طرفيها كانا على جبلين ووسطهما وادي، والكنيسة التي فيها ضريح القديس يوحنا، كانت على بعد رمية سهم عن هذه المدينة وكانت قائمة على رأس جبل، وبما أن البقعة القريبة من الكنيسة هي أكثر حصانة، فقد جرى نقل مدينة إفسوس من قبل الأتراك خوفاً من المسيحيين، والمدينة القديمة هي مهجورة الآن، وفي أيامي كان يسكن هناك سيده نبيلة كان زوجها يمتلك المدينة كلها،

وكان هناك رجلاً اسمه زلابين Zalabin ، وهو تركي، انتزع المدينة منها، وبموافقة منه سكنت السيدة النيلة تحت قلعة إفسوس، وقد حصلت على إجازة منه لبيع الخمر إلى التجار، وبحزن وأسى عظيم أباحت لنا عن أحزان قلبها لفقدانها زوجها ومدينتها، وعلى مقربة من مدينة إفسوس هناك نبع صغير مستدير، فيه أسماك رائعة بأعداد كبيرة، ويندفع الماء من هذا النبع بكميات كبيرة كافية لسقاية جميع المروج والحدائق والأراضي التي هي هناك، وعليك أن تعرف أن المدينة التي عرفت فيما مضى باسم مدينة إفسوس، أطلق عليها من قبل الاغريق اسم ثيولوجوس Theologos (أيا سلوق)، وهي تعرف الآن باسم ألتيلوت Altelot ، أي المكان المرتفع (Altus - Locus) ، لأن المدينة — كما أخبرتكم قد نقلت إلى مكان مرتفع حول الكنيسة، وعلى بعد حوالي أربعة أميال من هذه المدينة القديمة، أعني مدينة إفسوس، قد جرى بناء مدينة جديدة، وذلك على شاطئ البحر ، حيث يوجد الميناء، وقد سكنت من قبل مسيحيين، كانوا قد طردوا من لومبارديا أثناء نزاع، ولدى هؤلاء الناس كنائس، ورهبان فرنسيسكان، ويعيشون مثل المسيحيين، وعلى كل حال كانوا قد أنزلوا فيما مضى من أيام بالمسيحيين أضراراً كبيرة بالتعاون مع الأتراك، وعلى مقربة من مدينة إفسوس الجديدة هناك نهر مثله بالاتساع مثل نهر الراين، وهو يجري خلال بلاد تركيا قادماً من بلاد التتر، وتنحدر على هذا النهر ويجري نقل كثيراً من التجارات من مختلف الأنواع، وذلك مثلما يفعل على ظهر الراين في هذه المناطق، وفي هذا النهر اعتاد الأتراك، والذين يدعون زيفاً باسم المسيحيين، على جمع سفنهم، وأسلحتهم، وعتادهم، عندما يقررون القتال ضد المسيحيين، وعلى هذا النهر و عبره يلحق بالمسيحيين كثير من الأذى والضرر.

١٩ - جزر متنوعة في البحر وأولها جزيرة رودس

من إفسوس يمكن للانسان أن يستأنف إبحاره إلى عدد كبير من الجزر الأخرى المختلفة، وعليك أن تعرف أنه يوجد في تلك المنطقة من البحر أكثر من سبعائة جزيرة صغيرة وكبيرة، مسكونة ومهجورة، لبعضها فضائل خاصة، وبعضها مليء بجميع أشكال الأشياء الجيدة، بينما بعضها مليء بينابيع سامة، ومخلوقات ضارة جداً، وبين هذه الجزر هناك جزيرة صغيرة فيها نبع مياه حارة جداً، وهي تغلي مثل مياه في قدر، وهي سامة إلى حد لو أن طائراً طار فقط فوقها لمات، وإلى جانب هذه الجزيرة هناك جزيرة أخرى، لا يتجاوز قياس محيطها الميلين، تقوم عليها كنيسة صغيرة، وعلى هذه الجزيرة وعول وحيوانات برية أخرى، وهم من الكثافة بمكان إلى حد أنه لا يخلو مكان في الجزيرة منهم، ونزل رفاقي في إحدى المرات في هذه الجزيرة، فوجدوا في الكنيسة رماحاً وترسة، وقسيماً عقارة مع كثير من السلاح، ومخزوناً كبيراً من اللحوم المجففة، كانت قد جلبت إلى هناك من قبل قرصان البحر واللصوص فيه، ولعل ذلك كان بعد الاستيلاء عليها مرة إثر أخرى، فقد خزنها هناك، وقد انتظر رفاقي هناك طوال اليوم متوقعين قدوم اللصوص، وذهبوا إلى الصيد، لكنهم لم يمسكوا أي شيء، ولكن صدف عند حلول المساء، أن واحداً منهم كان جالساً بين صخرتين، فجاء وعل ليمر من فوقه، فقطع رجله اليمنى وجرح اليسرى بضربة من سيفه، وهكذا حصلوا على الوعل وغادروا، ويوجد إلى جانب هذه الجزيرة جزيرة أخرى، لا يوجد فيها أية حيوانات باستثناء بعض الحمير الوحشية، وهي تعطي فرصة جيدة لرياضة صيدها، لكن ليس لديها لحوم جيدة للأكل مثل لحوم الطرائد الأخرى، وليس بعيداً عن هذه الجزيرة هناك جزيرة أخرى اسمها بيرا *Peyra* ، وهي جزيرة جيدة، يوجد فيها ثلاثة أشكال من الحجارة اسمها *Alun* ، بكميات كبيرة جداً، ولهذا تصدر

هذه الحجارة من هناك إلى جميع أنحاء العالم، ومنذ وقت غير طويل استولى الجنويون على هذه الجزيرة وانتزعوها من الأتراك بالقوة، وفعلوا خيراً بإعادتها إلى أسقفيتها وإلى أحوالها الأصيلة، وهذه الجزيرة على مقربة من تركيا، وبينها وبين تركيا جسر، لو استطاع الأتراك لما سمحوا لأحد بعبوره، سواء أكان الحال فيما بينهم حالة حرب أو سلم، وتجدهم عدوانيين كثيراً لدى خسارتهم للجزيرة، ويحتاج الأمر إلى وقت طويل لإخباركم حول الجزر الأخرى، وإذا ما ترك الإنسان هذه الجزر، يبحر ثانية عائداً إلى شواطئ آسيا الصغرى أو تركيا، ويصل إلى باترا Pa-tara، التي كانت فيما مضى مدينة جليلة، وفائقة الجمال، وقد جرى تدميرها الآن من قبل الأتراك، وولد في هذه الجزيرة البابا التقي نيقولا، ويبحر الانسان من باترا ليصل إلى مدينة أخرى كانت جليلة جداً أيضاً، غير أنها مدمرة الآن، اسمها ميرا Mirrhea، فيها جرى انتخاب البابا نيقولا المجيد بشكل رائع أسقفاً، وهو الذي أنار تلك البلاد كلها بمعجزاته الكثيرة وبمحاسنه وفضائله، ومن ميرا — إذا ما اخترت — يمكنك متابعة الأبحار، وسوف تصل إلى جزيرة جيدة جداً ومشهورة اسمها كريت، وهي التي كانت فيما مضى مملكة قائمة بنفسها، غير أنها لا تحتوي على كثير من المدن المحصنة، واسم أعظم مدنها الخندق ويحرق في الجزء الأعظم من هذه الجزيرة القصعين من أجل استخدامات نار الحطب، وقد استولى البنادقة على هذه الجزيرة بالقوة، وانتزعوها من الاغريق، ومن كريت يبحر الانسان إلى جزيرة أخرى جميلة جداً ومتميزة، وصحية ولطيفة، وقد كان اسمها فيما مضى كولوس Co-los، ولها حاضرة اسمها كولوسينسيس Colossensis، ولهذا الجزيرة كان القديس بولس قد كتب رسالته (إلى أهل كولوسي)، وتعرف هذه الجزيرة باسم رودوس، بسبب إقليم المناخ السابع للعالم، الذي تقف هذه الجزيرة لوحدها فيه، وهي تفصل بين أقاليم المناخات وتميزها.

ومن هذه الجزيرة كان قد جاء الدمار أولاً إلى مدينة طروادة النبيلة، لأنهم قالوا عاش هناك الكبش مع الخاروف الذهبي، الذي قرأنا عنها مطولاً في تواريخ طروادة، وجزيرة رودس هذه جزيرة ثمينة جداً، ذلك أنها جبلية، وقائمة وسط رياح صحية جداً، وهي مليئة بحيوانات برية اسم واحد الأيل الأسمر، فضلاً عن هذا، إنك من أي مكان من البحر أبحرت لا بد من أن تمر برودس أو بالقرب منها، وفي هذه الجزيرة هناك مدينة اسمها رودس، وهي فائقة الجمال وحصينة، ولها أسوار عالية وأبراج منيعة بنيت من أحجار كبيرة جداً، تبعث على العجب كيف استطاعت اليد البشرية وضعها في أماكنها، ولدى فقدان عكا، قام مقدم فرسان استبارية القدس مع رهبانه بالاستيلاء على هذه الجزيرة بالقوة، وانتزعوها من الاغريق، وقد حاصروها لمدة سنة، وما كان بإمكانهم الاستيلاء على المدينة، لولا أنهم كسبوا سكانها إلى جانبهم عن طريق الرشوة، وهكذا سلموا الجزيرة برضاهم، ولهذا قام رهبان الطائفة باتخاذها مقراً قيادياً لهم، وفيها سكنوا وما زالوا حتى هذا اليوم، وهناك ثلاثمائة وخمسين راهباً مع مقدم الطائفة، الذي كان في أيامي ايلينوس (دي فيلانوفي ١٣٢٧ - ١٣٤٦)، وهو رجل متقدم بالسن كثيراً، وبالغ الشح، وقد جمع ثروة لا تحصى، وبنى كثيراً في رودس، وحرر الطائفة من جميع ديونها الواسعة، وتقوم هذه الجزيرة على مسافة عن تركيا تساوي قدر ما يبلغه صوت إنسان، فهي مفصولة عن تركيا بوساطة مضيق بحري وتجيبي الجزية من كل المناطق المحيطة بها، ومن تركيا ثلث منتجات تلك البلاد، ولها في تركيا قلعة صغيرة، لكن حصينة جداً، وبين هؤلاء الرهبان وبقية تركيا هدنة على اليابسة، ولكن ليس في البحر، ولا في الأماكن التي يؤذون فيها المسيحيين، ويمتلك رهبان فرسان الاستبارية هؤلاء أنفسهم جزيرة أخرى حصينة اسمها لانغو Lango ، مليئة بالقمح، والخمرة، والزيت مع كثير من الثمار ويسكن فيها خمسين من فرسان الاستبارية، من رودس، ويمتلك

الفرسان جزيرة ثالثة كذلك صغيرة، وخصبة اسمها قلعة روسو Ros-so ، التي تولى الأتراك نهبا في إحدى المرات، غير أنها مسكونة الآن بشكل جيد من قبل الفرسان ومرزقتهم، ويوجد فيها قلعة حصينة جداً وعالية، منها يمكن رؤية كل سفينة تبحر إلى أية جهة من جهات البحر لمسافة خمسين ميلاً تقريباً، ووقتها يرسلون الشارات إلى الفرسان في رودس ولانغو، وإلى المسيحيين الآخرين في ذلك المحيط، وذلك باستخدام الدخان بالنهار، واللهب في الليل، ويخبرونهم بعدد السفن الموجودة في البحر، وبناء عليه يقوم الفرسان والمسيحيون باتخاذ اجراءات الاستعداد للقتال والدفاع وفقاً لعدد السفن التي تلقوا شارات عنها، وهذه الجزيرة نافعة جداً بالنسبة للمسيحيين، فمنذ أن امتلك الاستبارية الجزيرة والقلعة، لم يقم الأتراك بإلحاق الأذى بالمسيحيين بسفنهم، فضلاً عن هذا اعتادت جزيرة رودس مع جزيرة لانغو، وجميع الجزر، والبلاد المسيحية هناك على دفع الجزية إلى الأتراك قبل أيام الاستبارية في رودس، لكن الآن بفضل نعمة الرب عكس الاستبارية الوضع تماماً، وكان الأتراك عندما سمعوا بأن جزيرة رودس جرى الاستيلاء عليها من قبل فرسان القديس يوحنا، حشدوا جيشاً كبيراً، وأرسلوا أولاً سفارة مهيبية تطالب في البداية بشكل لطيف وبعرض سلمي بدفع الجزية المستحقة لهم على الاستبارية، مع الاعلان أنهم سيقومون عن طواعية بإبرام سلام وعقد معاهدة مع الاستبارية، وفي جميع الأحوال عليهم دفع الجزية لهم، ولم يكن للطائفة في ذلك الوقت مقدم لأن الراهب فولك دي فيلارت Villaret ، الذي كان مقدم الطائفة، كان قد جرى خلعه من قبل الفرسان إثر خلاف ونزاع، غير أن واحداً من الرهبان من بازل Basle وكان شجاعاً جداً، وفارساً أميناً، كان وقتئذ الوصي على الطائفة، عمل الجواب وتقدم به إلى الأتراك، راجياً منحه فرصة ثلاثة أيام من أجل التفكير والتقدير، وأن تكون هذه الأيام بمثابة هدنة، الأمر الذي رحب به الأتراك

ومنحوه إياه، وأمروا جيشهم بأن يكون على أهبة الاستعداد، وفي الوقت نفسه تابع هذا الوصي ذاته الاحتفال يومياً مع الأتراك، ووجد ببراعة كل ما كان بحاجة إليه حول جيشهم، وأحواله ووضعته، وما الذي ينوي فعله، وحشد في الوقت نفسه أكبر عدد من السفن والرجال أمكنه توفيرهم، وتظاهر في اليوم الثالث أنه على وشك مغادرة رودس للقتال ضد الاغريق، وسأل الرسل الأتراك بالدخول إلى بيته خشية أن يلحقهم بعض الأذى على أيدي المسيحيين، والبقاء هناك حتى عودته، وفعل الرسل ما طلب منهم، وقام إثر ذلك هذا الفارس، الذي هو الوصي على الطائفة بوضع حرس حول الرسل بشكل سري من ثقاته، وأقلع إثر هذا مع جيشه وبات في وسط البحر، وانقض في فجر اليوم التالي على جيش الأتراك، وفتك به وقتل أفراده من دون تمييز بين رجل وامرأة، وشاب وشيخ، لأن من عادة الأتراك والتتار اصطحاب أزواجهم وأولادهم الصغار وجميع مقتنياتهم معهم في الجيش، إلى حيثما توجهوا وقصدوا، وهكذا بعدما قتلوا جميع الناس وحصلوا على جميع مقتنياتهم وقطعانهم، عاد هؤلاء الفرسان إلى رودس في اليوم الثالث وسط بهجة عارمة.

ولقد سمعت من بعض الذين كانوا حضوراً، أنهم حصلوا على كثير من الأسلاب، حتى أنهم حزموا هذه الأسلاب وجروها في البحر بواسطة حبال، شدوها إلى السفن، وعندما كمل هذا كله، استدعى الوصي على الطائفة الرسل الأتراك، وأخبرهم بأن الاستبارية على استعداد لإقامة هدنة ولعقد معاهدة مع الأتراك، ثم تركهم يغادرون على الفور، فقاموا باليوم نفسه، وسط بهجة عظيمة، بالرسو بالمكان الذي تركوا فيه جيشهم، غير أنهم وجدوا أن جيشهم قد قتل كله حديثاً، وأجساد أفراده معرأة ومسلوبة، وأن جميع الممتلكات قد أخذت بعدما سلبت، وعندما رأوا هذا كله، ذهبوا إلى موطنهم حزنين بقدر ما

كانوا مسرورين، ونقلوا ما لديهم من أخبار إلى بقية الأتراك، ومنذ ذلك الحين لم يطلب الأتراك الجزية من التتار من فرسان القديس يوحنا أو من المسيحيين في رودس حتى هذا اليوم.

وفي رودس هناك الكثير من الآثار المبجلة، من بينها الصليب النحاسي، المعتقد أنه صنع من الجرن الذي غسل فيه المسيح أقدام حواريه، هذا وللقوالب الشمعية المصنوعة بوساطة هذا الصليب قوة هائلة في تهدئة العواصف في البحر، وكان هذا الصليب مع آثار أخرى مبجلة، هي الآن لدى فرسان الاستارية، كانت ملكاً فيما مضى لفرسان الداوية، ذلك أن جميع مقتنياتهم وقلاعهم هي الآن ملكاً لفرسان المتقدم ذكرهم، ويحتاج الأمر إلى وقت طويل للحديث عن بقية أمجاد رودس الأخرى، وكذلك عن جميع الانتصارات المتنوعة لفرسان المتقدمي الذكر، ويحرر الانسان من رودس إلى قبرص.

٢٠ - قبرص

قبرص جزيرة جليلة جداً، وشهيرة، وفي غاية الثراء، إلى درجة لا يمكن مقارنتها مع جميع جزائر البحر الأخرى، وهي خصبة بجميع الأشياء الجيدة، ومتفوقة على سواها، وقد قرأنا بأنها سكنت أولاً من قبل يافث بن نوح، وبالنسبة إلى حجمها، هي متفوقة على جميع البلدان الأخرى، والمدن الساحلية في الجوار، ذلك أنها محاطة بما يشبه الطوق ببلاد مصر، وسورية وأرمينية، وبلاد الاغريق، والمسافة من قبرص إلى جميع هذه البلاد ليست أكثر من سفر نصف يوم بالبحر، وذلك كما سأذكر فيما يلي.

وكانت هذه الجزيرة المجيدة فيما مضى ملكاً للداوية، الذين باعوها إلى ملك القدس، ثم إنه عندما فقدت عكا مع الأرض المقدسة، وجرى تدميرها، انتقل ملك القدس، والأمراء، والنبلاء وبارونات مملكة القدس

إلى قبرص وسكنوا هناك، وهم يسكنون هناك حتى هذا اليوم، وهكذا غدت قبرص مملكة، وفي قبرص ثلاثة أسقفيات هي أسقفيات: بافوس، وليماسول، وفيماغوستا، وفيها مطرانية واحدة، رئيسها أسقف نيقوسيا، الذي هو في أيامي راهب ماروني اسمه الياس، وقد صار كاردينالاً من قبل البابا كليمنت السادس (١٣٤٢ - ١٣٥٣)، وأقدم مدينة في قبرص هي مدينة بافوس، التي كانت فيما مضى مدينة جليلة جداً، ومكاناً عظيماً، وهي قائمة على شاطئ البحر مباشرة في مواجهة الاسكندرية، وقد تولى بولس وبرنابا هداية هذه المدينة إلى الايمان بالمسيح، ومنها اهتدت الأرض كلها وتحولت إلى العقيدة، وذلك حسياً جاء في أعمال الرسل (٣٩/١٥)، وقام فيما مضى على مقربة من بافوس قلعة فينوس، حيث اعتادوا على عبادة صنم فينوس، وكانوا يرتحلون من بلدان نائية لزيارة أبوابها، وهناك كان يجتمع نبلاء السادة والسيدات، والشابات مع بعضهم في تلك القلعة، وفي هذا المعبد اتخذت الخطوة الأولى نحو تدمير طروادة، لأن هيلين قد أسرت عندما كانت في طريقها إلى هذا الهيكل، فضلاً عن هذا اعتادت جميع الشابات والفتيات على قطع العهود في هذا المعبد بالنسبة للزواج وللأزواج، ولهذا السبب فإن الرجال في قبرص جنسيين بالطبيعة أكثر من سواهم في البلدان الأخرى، لأنه إذا ما وضع تراب من قبرص، وبشكل خاص من الموضع الذي كانت قلعة فينوس قائمة فيه، تحت رأس إنسان لدى نومه، فإن ذلك سوف يدفعه إلى ممارسة الجنس طوال الليل، وعلى مقربة من بافوس يوجد المكان الذي اعتاد القديس هيلاري Hilary أن يسكن فيه، وهناك صنع كثيراً من المعجزات، وهناك أماكن أخرى كثيرة اعتاد قديسون آخرون على السكنى فيها، وبشكل خاص القديس زيزونيموس Zyzonimus، والقديس ماما Mamma، الذي ولد في ألمانيا، وإليه اعتاد الاغريق على الصلاة بتقوى عظيمة من أجل التخلص من الدمامل.

٢١ - كرم عين الجدي

ويوجد في أسقفية بافوس هذه نفسها كرم عين الجدي، الذي لانظير له في العالم، وهذا الكرم قائم فوق جبل عظيم الارتفاع، وطوله ميلان، وهناك شعاب شاهقة تحيط به من كل جانب مثل سور، وله مدخل واحد ضيق، وهو منبسط تماماً على الذروة تماماً، وينمو في هذا الكرم كثير من العنب، وهناك دوالي من مختلف الأنواع، وبعضها ينتج عنبا الحبة الواحدة كبيرة بحجم حبة الكمثرى الكبيرة، وينتج بعضها الآخر عنبا الحبة منه صغيرة مثل حبة الكمثرى الصغيرة، وتنتج بعض الدوالي عنقايد عنب واحد كبير مثل عدة جرار، وبعضها الآخر عنقايد صغيرة جداً، وتعطي بعض الدوالي عنباً أبيض، وبعضها الآخر عنباً أسود، وبعضها عنباً أحمر، وتعطي بعض الدوالي عنباً من دون بذور، وبعضها الآخر أعناباً مستطيلة، شكلها مثل شكل جوزة البلوط، وبعضها شفافاً، كما هناك أنواع أخرى لاتحصى من الدوالي والأعناب من الممكن رؤيتها في هذا الكرم، وكان هذا الكرم فيما مضى ملكاً لفرسان الداوية، لكنه الآن ملكاً لفرسان القديس يوحنا في رودس، وكان هناك في أيام الداوية دوماً مائة من الرقيق - أعني من أسرى المسلمين - موجودين بشكل دائم، ليس لهم من واجبات أو عمل مفروض عليهم، غير العناية بهذا الكرم ورعايته، ولقد سمعت من عدد كبير من الرجال ذوي الخبرة العظيمة، أنه لا يوجد تحت الشمس أكثر جمالاً من هذه الجوهرة، وأعظم جلالاً، أو روعة، وقد خلقها الله من أجل فائدة الانسان، وذلك مثلما نقرأ عن الشيء نفسه في نشيد إنشاد سليمان قوله: «حبيبي بالنسبة لي مثل عنقود كافور في كروم عين جدي» (١٤ / ١).

وليس بعيداً عن بافوس تقوم ليباسول، التي كانت فيما مضى مدينة جميلة، غير أنها الآن مدمرة كثيراً بسبب الزلازل، وتدفق المياه بشكل

مفاجيء من الجبال، وهذه المدينة قائمة على الساحل، وهي تقابل بشكل مباشر، صور، وصيدا، وبيروت، وعندما فقدت عكا سكن هذه المدينة فرسان مشفى القديس يوحنا، وفرسان الداوية، والنبلاء الآخرون، ومن الممكن رؤية قصورهم الكثيرة وقلاعهم حتى هذا اليوم، وعلى مقربة من ليماسول هناك كرم آخر اسمه كرم عين الجدي الصغير، وفيه ينمو كثير من الدوالي، لا يمكن للإنسان أن يقيسها بذراعيه، غير أنها ليست طويلة جداً، ولا تعطي كثيراً من الثمار، وفي موضع من هذه الأسقفية اسمه برافيمانت Pravimunt (بنينات Peninunt) يسكن رهبان من فرسان طائفة التوتون، وكذلك بعض الانكليز من طائفة القديس توماس أوف كانتربري، ويوجد في هذه الأسقفية أيضاً جبل عظيم الارتفاع، قائم منفرد بذاته، يشبه كثيراً جبل الطور، ويقوم على ذروته دير جميل، فيه رهبان من طائفة القديس بندكت، وفي هذا الدير الصليب الكامل الذي صلب عليه اللص على يمين المسيح، وقد أحضر إلى هنا من قبل القديسة هيلانة، وهي أيضاً تولت بناء هذا الدير مع تكريسه، وتجري تحية هذا الصليب والسلام عليه بكل تقوى من قبل جميع البحارة وهم في البحر، وذلك عندما يقتربون من هذا الجبل، وقد صنع الرب كثيراً من المعجزات على الجبل، بسبب فضائل الصليب المذكور، ومن الممكن رؤية جبل لبنان بوضوح من هذا الجبل.

٢٢ — مدينة فيماغوستا

واسم المدينة الثالثة في قبرص هو فيماغوستا، وهي قائمة على شاطئ البحر، وفيها الآن ميناء لجميع البحر، وللمملكة كلها، وهناك لا بد من تجمع التجار والحجاج، وتقوم هذه المدينة مباشرة في مواجهة أرمينيا وتركيا، وعكا، وهذه أغنى جميع المدن في قبرص، وسكانها أثرياء إلى أبعد الحدود، وفي إحدى المرات كان واحداً من أهالي فيماغوستا يزوج ابنته، وقد قال الفرسان الفرنسيون الذين كانوا يبحرون معنا بأن

الجواهر التي وضعتهم فوق رأسها كانوا أفضل من جميع جواهر فرنسا، وكان في هذه المدينة تاجراً باع إلى السلطان كرة سلطانية ذهبية بمبلغ ستين ألف فلورين، وتحتوي هذه الكرة على أربعة أحجار كريمة فقط هي من: العقيق الأحمر، والياقوت الأزرق، واللؤلؤ، والزمرد، ومع هذا ذهب إليه فيما بعد والتمس أن يسمح له بشراء تلك الكرة ثانية مقابل مائة ألف فلورين، لكن التماسه رفض، فضلاً عن هذا كان لدى قسطلان القدس أربع لآلىء، كانت زوجته ترتديهم على شكل «بروش»، كان بإمكانه متى أراد، وحيثما رغب، أن يرهنهم مقابل ثلاثمائة ألف فلورين، وكان في مخزن هذه المدينة أكثر من حمولة خمس عربات من خشب الصبر، ولن أقول شيئاً عن التوابل، لكثرة تداولها وانتشارها، فهي مثل الخبز هنا، وهي تمزج بشكل عادي وتباع، وكذلك لن أجرؤ على أن أقول شيئاً أكثر حول الأحجار الكريمة، والثياب المذهبة، وأنواع الثروات الأخرى، لأنه يوجد في تلك المناطق مخازن منهم لم يسمع بمثلاها، ولا يمكن تصديقها، ويسكن في هذه المدينة عدد كبير من المومسات الثريات جداً بشكل لا يحصى، ذلك أن بعضهن يملكن أكثر من مائة ألف فلورين، وعن ثرواتهم لا أتجرأ على قول المزيد.

٢٣ — سلامينا ونيقوسيا

وعلى مقربة من فياغوستا هناك مدينة ساحلية أخرى اسمها كونستانتيا، أو سلامينا، وهذه كانت فيما مضى مدينة جليلة، وشهيرة، وجميلة، فعلى ذلك تدلك خرائبها، وقد عاش في هذه المدينة رجل رائع في قداسته، اسمه القديس ايبفانيوس Epiphanius ، وقد انتخب أسقفاً بشكل إعجازي ودفن هناك، وولدت في المدينة نفسها العذراء القديسة كاترين، وتقوم بيعتها حتى هذا اليوم فوق موضع ولادتها، وواجه في هذه المدينة القديس برنابا الرسول الشهادة، وعلى مقربة منها جرى إحراق جسده ودفنه، وقد مجد القديس ايبفانيوس هذه المدينة

وجميع المنطقة من حولها بكثير من المعجزات، غير أن هذه المدينة مدمرة الآن بشكل كلي.

ويوجد في قبرص مدينة أخرى عظيمة جداً اسمها نيقوسيا، وهذه المدينة هي حاضرة قبرص، وهي قائمة وسط سهل هناك عند سفح الجبال، وفي وسط هواء صحي جداً، ويسكن في هذه المدينة ملك قبرص والأساقفة ورجال الكنيسة الآخرون، الذين هم من أهل المملكة، وذلك بسبب هوائها الصحي، ويعيش أيضاً هناك القسم الأكبر من الأمراء الآخرين، والكونتات، والبارونات، والفرسان، ويمتعون أنفسهم كل يوم بالمباريات والمنازلات، وبالصيد بشكل خاص، ويوجد في قبرص كباش برية، ليست موجودة في مكان آخر في العالم، ومن الممكن اصطيدهم بوساطة الفهود، ومن غير الممكن اصطيدهم بأية وسيلة أخرى.

والأمراء والنبلاء، والبارونات، والشعب في قبرص هم الأغنى في العالم، لأن الانسان الذي يمتلك فيها مورداً قدره ثلاثة آلاف فلورين، ينظر إليه أقل من الانسان الذي دخله في هذه المناطق أقل من ثلاثة ماركات، غير أنهم ينفقون ثرواتهم على الصيد، فأنا أعرف واحداً من كونتات يافا لديه أكثر من خمسمائة كلب صيد، وكل زوج من هذه الكلاب له خادم خاص بهما، — كما جرت العادة في هذه البلاد — ويحافظ الخادم عليها نظيفين، ويحممهما، ويدهنهما، فهذا ما يحتاج للقيام به بالنسبة لكلاب الصيد في هذه البلاد، وكان أيضاً أحد النبلاء لديه على الأقل عشرة صقور، أو اثني عشر صقراً، وقد رصد لهم ميزانية خاصة بهم للانفاق عليهم، وأنا أعرف عدداً كبيراً من النبلاء الفرسان في قبرص بإمكان كل واحد منهم تجنيد أكثر من مائتين من الرجال المسلحين والانفاق عليهم مبلغاً أقل من المبلغ الذي ينفقه على كلاب صيده أو صقوره، لأنهم عندما يخرجون إلى الصيد يبقون أحياناً لمدة

شهر في الغابات وفي الجبال، يتجولون مع خيامهم من مكان إلى مكان آخر، يتمتعون ويتسلون بالصيد مع كلابهم وصقورهم، وينامون في الغابات والحقول في خيمهم، ويحملون معهم كل ما يحتاجون إليه من مؤن وعتاد على ظهور الجمال مع حيوانات التحميل.

وعليك أن تعرف أن جميع الأمراء، والنبلاء، والبارونات، والفرسان، وأفراد الشعب في قبرص، هم الأفضل والأغنى في العالم، وهم يسكنون الآن هناك مع أولادهم، وكانوا قد اعتادوا من قبل على السكنى في أراضي سورية ومدنها، وفي اليهودية، وفي مدينة عكا الجليلية، لكن أما الآن قد تمت خسارة الأراضي والمدن السورية وكذلك اليهودية ومدينة عكا الجليلية، فقد هربوا إلى قبرص، وسكنوا هناك ومايزالون يسكنون حتى الآن، ويوجد في قبرص أناس أغنياء جداً، وتجار، ولاعجب في ذلك، لأن قبرص موجودة في أقصى (الشرق) بالنسبة للبلدان المسيحية، ولهذا لا بد لجميع السفن الصغيرة والكبيرة، ولجميع التجارات مهما كان نوعها، ومن أي بلد جاءت، لا بد أنها محتاجة إلى القدوم أولاً وقبل كل شيء إلى قبرص، حيث لا يمكنها بأي شكل من الأشكال تجاوزها، فضلاً عن هذا يحتاج جميع الحجاج القادمين من جميع أنحاء العالم ومن أي بلد كان، عندما يتجهون إلى البلدان القائمة فيما وراء البحار، يحتاجون إلى القدوم إلى قبرص، وفي كل يوم منذ شروق الشمس حتى غيابها يسمع الانسان ببعض الأقاويل وبعض الأخبار هناك، وفي قبرص من الممكن أيضاً سماع جميع اللغات المحكية في العالم والتحدث بها، وكذلك تعليمها في مدارس خاصة، وتنمو في قبرص كروم رائعة فوق الجبال العالية، قد تعرضت لأشعة الشمس، وتكون خمر هذه الأعناب في البداية حمراء، لكن بعد مكوثها في جرار فخارية لمدة أربعة أعوام، أو ستة، أو عشرة، أو عشرين، تغدو بيضاء، ومهما كانت المدة التي مكثت فيها طويلة، لن تفقد قوتها، بل تزداد كل يوم، حتى يبلغ

الأمر أن تسعة عيارات من الماء تضاف بالعادة إلى عيار واحد من الخمر، وإذا ما أقدم إنسان على شرب دن من تلك الخمرة هو لن يسكر فقط بل ستحترق أحشاؤه في الداخل وتتمزق، ومع ذلك مفيد صحياً أن تتناول بعضاً من هذه الخمرة من دون مزج وتشربها على معدة فارغة، ولا يوجد في أي مكان شارب خمر أفضل أو أكثر تناولاً من الذين في قبرص، وفي قبرص تنمو جميع الأشجار والأعشاب مثلما تنمو في الأرض المقدسة، وكان في قبرص في أيامي عدد كبير من النبلاء والبارونات، والفرسان، الذين تركوا ألمانيا، أذكر من هؤلاء: كونت فياندن Vianden، وكونت سكاورتنبيرغ -Schwartzenberg، ولورد أوف سيلد Sleyde، وأمير أوف لختنستين Lichtenstein، وعدد كبير آخر.

يضاف إلى هذا أن جميع الأماكن الساحلية في تركيا والمناطق المحيطة بها تدفع الجزية إلى ملك قبرص، والمقصود بهذا: كانديلور -Can delor، وسكالنون Scalnun، وسيكي Siki، وأضاليا، والأماكن الأخرى والأحواز القريبة منهم، ويوجد في مدينة أضاليا هذه ثلاثة شعوب من الهراطقة، والمدينة مقسمة بأسوار وخنادق إلى ثلاثة أقسام، ويسكن في القسم الأول منها الاغريق، الذين يحافظون على يوم الرب المقدس (الأحد)، ويسكن في القسم الثاني اليهود الذين يحافظون على يوم السبت المقدس، وفي القسم الثالث الأتراك، الذين يحافظون على يوم الجمعة، ويرونه مقدساً، ويوجد في القسم الاغريقي صورة العذراء مريم المباركة، مرسومة على رقيم، ويوجد في العالم ثلاثة رقم من الشيء نفسه هي: الأول في روما، والثاني في القسطنطينية، والثالث في أضاليا، وهم جميعاً بالحجم نفسه، والشكل، والمظهر، ومن المعتقد أن القديس لوقا قد رسم هذه الصور الثلاث مباشرة عن شخص مريم المباركة، وصدوراً عن الاحترام لهذه الصور، صنع الرب كثيراً من

المعجزات هناك، ويحتاج إلى زمن طويل جداً للحديث عن بقية ثراء وجمالة قبرص.

٢٤ — المدن القائمة على شاطئ البحر

وفي عودة إلى موضوعي، يبهر الانسان من قبرص، إلى واحدة من المدن القائمة على شاطئ البحر، وذلك إما إلى مصر أو إلى سورية، وهذه المدن هي كمايلي: الاسكندرية، طرابلس، بيروت، جبيل، يافا، صيدا، صور، وعكا، وقبل المضي أكثر سوف أتحدث بعض الشيء حول هذه المدن، حتى يمكنك أن تتعرف إليهم، وهم جميعاً أعطوا أسماء مختلفة عن الأسماء التي حملوها في الماضي، وذلك بعدما فقدت الأرض المقدسة واستردت كثيراً من المرات، ولذلك سوف أتحدث قليلاً عنهم حتى تعرف بحصنة من وقعت هذه المدن عندما استولى عليها الصليبيون.

وعليك أن تعرف أن ما من واحدة من هذه المدن تبعد أكثر من سبعمائة ميل عن قبرص، واعلم أولاً أن الاسكندرية هي المدينة البحرية الأولى لمصر، وواحدة من أحسن مدن السلطان، وهي قائمة من الجانب الأول على نهر النيل، الذي هو نهر الفردوس، والذي يصب في البحر بجوارها، ويقع جانبها الآخر على شاطئ البحر، وهذه المدينة فائقة الجمال وحصينة، ومحاطة بأبراج عالية وبأسوار تبدو أنها لا ترام، وقد سكنت فيما مضى من قبل المسيحيين، وأما الآن فهي مسكونة من قبل المسلمين، وهي في الداخل في غاية النظافة، فهي كلها مغسولة ناصعة، ويوجد في قرنة كل شارع نبع ماء يجري خلال أنابيب، وجرت المحافظة على نظافة المدينة بكل عناية من قبل مراقبين، الذين واجبهم هو منع رمي أية أوساخ في الشوارع أو بالينابيع من قبل أي إنسان، ويبقى السلطان في هذه المدينة على جنود مرتزقة مع حرسه الشخصي، حيث يتولون حراسة المدينة مع الميناء، وكان القديس مرقس الانجيلي

بطريكاً في هذه المدينة، وقد استشهد هناك، وخلافة له مايزال هناك بطريك مسيحي فيها، وفي هذه المدينة مايزال قائماً حتى هذا اليوم كثيراً من الكنائس الأخرى، فيهم ترقد أجساد كثير من القديسين، ويوجد هناك كثيراً من المسيحيين والتجار يعيشون فيها، وتبدو هذه المدينة بالنسبة للعين البشرية أنها لاترام، ومع ذلك من السهل الاستيلاء عليها، وأنا لا أجرؤ على قول المزيد حول هذه المسألة.

ومدينة الاسكندرية هذه، التي عرفت بالقديم باسم الاسكندرية، تدعى الآن باسم اسكندرية، من قبل سكانها، وعلى مقربة من الاسكندرية يوجد الموضع الذي قطع فيه رأس القديسة كاترين، ومن هناك حملتها الملائكة إلى جبل سيناء، على بعد سفر حوالي ثمانية أيام، ويوجد في هذه المدينة كثرة كثيرة من الأماكن المقدسة وأماكن العبادة في تلك المدينة.

وليس بعيداً عن الاسكندرية هناك قرية سكانها جميعاً من المسلمين الحرفيين، الذي يتولون نسج البسط الرائعة بأشكال مختلفة، وبراعة مدهشة غريبة، ويقوم في هذا المكان أو القرية كنيسة صغيرة جميلة، فيها قبو صغير، ومن المعتقد أنه في هذا القبو جرى قطع رأس القديس يوحنا المعمدان، ومن المعتقد أن هذا القبو كان سجنًا، وهو معروف بسبب وضع المكان، حيث أنه قائم على حدود مصر والعربية، ويتولى هؤلاء الحرفيون المسلمون أنفسهم حراسة القبو بعناية فائقة وباحترام كبير، ويقومون بإضاءته بمصابيح وشموع، ويدفع كل واحد منهم حسب قدراته ووسائله بعضاً من دخله الخاص إلى الكنيسة وإلى القبو، لأنهم يعتقدون بكل تأكيد، وأنه قد تبرهن بالتجربة، أنهم إذا لم يحافظوا على الكنيسة بمثل هذا الاحترام، وإذا ما تركوها غير مضاعة لليلة واحدة، سوف تخرج الجردان من الأرض وستمزق إلى قطع وتلف جميع البسط المعمولة من قبلهم، ويقولون إنه كلما أظهر أي إنسان المزيد من الاحترام

للكنيسة والقبو المتقدمي الذكر، كلما نجح أكثر في عمله، وكان هذا المكان الذي تقوم فيه الكنيسة الآن يدعى قديماً بالعريية باسم النصرونية(?) Metharonta .

وأقرب مدينة إلى مصر اسمها طرابلس، وهي قائمة على شاطئ البحر، عند سفح جبل لبنان، وهي منطقة، أعطيت إلى كونت طولوز، بعد استرداد الأرض المقدسة من قبل الصليبيين، وهذه المنطقة أو الكونتية خصبة، ومشهورة بسبب مزرعاتها، ومروجها، ومراعيها، وأعشابها وأشجارها وفواكهها، وهي بذلك أكثر شهرة من جميع البلدان من حولها، وأعظم جمالاً، ولهذا تدعى دون سواها من البلدان باسم الجنة الثانية، وفيها ما هو محبوب وجميل فوق تصور البشر وفهمهم، وجرى تدمير هذه البلاد أو الكونتية المكونة من الحدائق بوساطة سيل تدفق من ذرى الجبال العالية للبنان، وذلك باندفاع نجيف، حتى أن صوته كان يمكن سماعه عن بعد أكثر من ميل، والذي كان واقفاً إلى جانبه صار أطرشاً لمدة تزيد على ثلاثة أيام، ومثل هذا هناك بئر ماء يجري خلال هذه المنطقة أو الكونتية، كما وينبع هناك نبع يتدفق دوماً من الأرض المنبسطة، ولم يتناقص قط بكمياته أو شكله، وهو في جميع الجوانب مثله مثل النبع الموجود في مدينة بادربورن، والذي يدعى باسم بادر Padere، وبمياه هذين الجدولين، أي النبع والبئر تتم سقاية جميع الأرض، وهذين هما الجدولين اللذين نقرأ عنها في [نشيد الانشاد: ٤/ ١٥]: «ينبوع جنات بئر مياه حية وسيول من لبنان».

وعليك أن تعرف أن جبل لبنان جبل طويل جداً، وهو في بعض الأماكن مرتفع كثيراً، وباعتقادي هو يشبه من جميع الجوانب الجبل الموجود في هذه المناطق واسمه اوسنغ Osning ، ويمتد جبل لبنان من بداية أرض الميعاد بعيداً حتى كليكياء، وهو جبل مليء بأجمل الأشجار، وأطيب الفواكه، والحشائش وما يمكن لقلب الإنسان أن

يتصوره، والجبل كذلك مليء بما لا يحصى من البلدات والقرى، فيها جميعاً يسكن مسيحيون، يسرون وفق الطقوس اللاتينية، وهم يتطلعون شوقاً يومياً لقدم المسيحين (بحملة صليبية)، ولقد رأيت عدداً كبيراً من أساقفتهم يسرون وفق الطقوس اللاتينية.

وعليك أن تعلم أن البلاد التي يصل إليها هذا الجبل، قد عرفت فيما مضى باسم كليشيا، لكنها تعرف الآن باسم أرمينيا الصغرى، لأن الأرمن استولوا على تلك الأرض وانتزعوها من المسلمين بالقوة، وتحاربوا معهم وتحاصموا لمدة خمسمائة سنة بدون انقطاع، وفي هذه المنطقة تقوم مدينة طرسوس الجبلية، التي كان القديس بولس الرسول قد ولد فيها.

وفي عودة إلى موضوعي: هناك مدينة بحرية أخرى اسمها بيروت، وهي مدينة جميلة وكثيرة السكان، وكانت عندما استولى الصليبيون على الأرض المقدسة صارت من نصيب لورد أوف ستاركبيرغ -Star- kenberg، وقد ورد ذكر هذه المدينة لدى الامبراطور جستنيان في مقدمة مختصر مدونته القانونية، ذلك أن دراسة القانون قد ازدهرت فيها فيما مضى، ويقوم في هذه الكنيسة كنيسة جميلة مكرسة للقديس نيقولا، وهي كنيسة تحظى باحترام خاص لدى المسيحيين، وكان القديس جورج قد حول هذه الجزيرة إلى عقيدة المسيح، وقتل التين الذي كانت تعاني منه، وأنقذ ابنة ملك المدينة من التين، ومجد البلاد بكثير من المعجزات، وبئر التين ما يزال من الممكن رؤيته بوضوح، ويلتقي جميع الحجاج المتوجهون إلى القدس مع بعضهم في هذه المدينة، ويمرون من خلالها.

وليس بعيداً عن هذه المدينة، هناك مدينة أخرى جيدة التحصين وقوية اسمها جبيل، التي آلت بعد الاستيلاء على الأرض المقدسة إلى

فرسان الداوية، ويقراً الانسان عن هذه المدينة في سفر الملوك (الأول: ١٨/٥) قوله: «والجلبليون وهياوا الأخشاب والحجارة لبناء البيت»، وكانت هذه المدينة تعرف وقتذاك باسم بيلوس، واسمها الآن جيل.

وليس بعيداً عن هذه المدينة، تقوم مدينة أخرى على شاطئ البحر اسمها يافا، التي ماتزال مسكونة بشكل جيد، وكان طريق الحجاج فيها مضى يمر عبر هذه المدينة، لكن قبل أيامي بوقت قصير قام السلطان بتخريب مرسى هذه المدينة، خشية من ملك فرنسا.

ويوجد على مقربة من هذه المدينة مدينتان أخريتان جملتان هما: الرملة، التي ولد فيها النبي صموئيل وعسقلان، وتبعد يافا سفر ثلاثة أيام عن القدس، أو مايقارب ذلك، وهي كونتية، وكونت يافا أيضاً مارشال مملكة القدس، وصاحب الرملة وعسقلان، وهكذا يذكر نفسه ومرتبته، وفي أيامي تزوج كونت يافا وهنري دوق برنزوك -Bruns wick من أختين.

وليس بعيداً عن يافا توجد مدينة جميلة جداً، قائمة على ساحل البحر، وهي جيدة التحصين بوساطة خمسة أبراج جيدة وبأسوار، لكنها مدمرة تماماً، واسم هذه المدينة صيدا، وإثر الاستيلاء على الأرض المقدسة صارت من حصة فارس اسمه دي نيبولي Neapoli ، وكانت هذه المدينة تعرف فيما مضى باسم صيدون، وتدعى الآن باسم ساغيت Sagette .

وعلى مقربة من هذه المدينة توجد مدينة أخرى فائقة الجمال، وهي بالوقت نفسه جيدة التحصين بوساطة أبراج جيدة وأسوار، وهي قائمة بمفردها فوق جزيرة في البحر، واسم هذه المدينة صور، وهي الآن شبه مهجورة، وكانت عندما جرى الاستيلاء على الأرض المقدسة، قد

صارت من حصّة بلدوين أخو غودفري دي بولليون، وهذه المدينة التي عرفت فيما مضى باسم Tyre ، تدعى هذه الأيام باسم صور.

ويقوم فيما بين صيدا وصور كنيسة جميلة، بنيت فوق المكان الذي دعت فيه المرأة الكنعانية الرب، ويتحدث، الانجيل عن هذا بقوله: «ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا، وإذا امرأة كنعانية» الخ، [متى: ٢١/١٥ - ٢٢].

٢٥ - مدينة عكا المجيدة

وعلى مقربة من صور، وعلى مسافة سفر يوم واحد على طول شاطئ البحر، تقوم مدينة عكا المجيدة، التي كانت فيما مضى محط الحجاج، وجميع المسافرين الآخرين، وهي تبعد مسيرة ثلاثة أيام عن القدس، وقبل المضي إلى أي أمر آخر، لابد من أن أقول شيئاً ما حول مدينة عكا هذه، لكن مع هذا عندما أنظر إلى أوضاعها الحالية أفضل النحيب والبكاء على أي شيء آخر، فأني قلب لن يذوب حزناً، ويستطيع أن يصمد، لدى رؤيته لخراب ولدمار هذه المدينة الجليلة والعظيمة؟ وتقوم مدينة عكا المجيدة هذه - كما قلت - على شاطئ البحر، وقد بنيت بحجارة منحوتة مربعة، حجمها أكبر من المعتاد، مع أبراج عالية وفائقة الحصانة والقوة، ولا يبعد كل برج عن البرج الآخر أكثر من مسافة رمية سهم، وذلك على طول محيط الأسوار كلها، ويقوم كل باب من أبواب المدينة بين برجين، والأسوار هناك عظيمة إلى حد يمكن لعريتين أن تمر إحداهما بالأخرى بسهولة فوق أعلاها، كما هو الحال في هذه الأيام، ومن الجهة الأخرى أيضاً، باتجاه اليابسة، المدينة محاطة بأسوار متميزة، وبخندق عميق جداً، وهو مجهز بشكل موائم بغطاسين وعمال ومدافعين وبوسائط موائمة للحراسة.

والشوارع في المدينة في داخلها مرتبة جداً ومنظمة، حيث أن جدران

البيوت كلها لها ارتفاع واحد، وكلها متشابهة البناء من حجارة منحوتة، مزينة بشكل رائع بناوفاً زجاجية ورسوم، وفي الوقت نفسه لم تبني جميع القصور والبيوت في المدينة لمجرد تلبية حاجيات الذين يسكنون فيها، وإنما لتزودهم بالرفاه الانساني وبالسرور والمتعة، وكل قصر متفوق بقدر الامكان على القصر الآخر بتزجيجه، ورسومه، وبقاعاته، وبوسائل التزيين الأخرى، التي أسس فيها في الداخل، والتي جمل بها في الخارج، وكانت شوارع المدينة مغطاة بأقمشة حريرية، أو بأقمشة ووسائل أخرى جميلة، لتمنع أشعة الشمس وتبقيها نائية، ولقد قام في زاوية كل شارع برج فائق القوة، محاط بباب حديدي وبأسوار حديدية، وسكن جميع النبلاء في قلاع حصينة وفي قصور على طول الطرف الخارجي للمدينة، وذلك تبعاً لحرفتهم ونوع أشغالهم، وعدّ جميع سكان المدينة، مثل النورمان القدماء، أنفسهم نبلاء، وتصرفوا بذواتهم مثل النبلاء، وذلك مثلما كانوا بالفعل فيما مضى، وأول سكان المدينة هناك ملك القدس وأخوانه مع عدد كبير من نبلاء الأسرة، وأمراء الجليل، وأمراء أنطاكية، والقائد الرئيسي للملك فرنسا، ودوق قيسارية وصاحب صور، وصاحب طبرية، وصاحب صيدا، وكونت طرابلس، وكونت يافا، وصاحب بيروت، وصاحب بينى، وصاحب بيسان، وصاحب أرسوف، وصاحب فوس Vaus ، ونبلاء تل الصافية.

وكان جميع هؤلاء الأمراء، والدوقات، والكونتات، والنبلاء، والبارونات يسيرون في الشوارع ويعرضون أنفسهم بأبهة ملكية، حيث الزينة الذهبية فوق رؤوسهم، وكل واحد منهم كأنه ملك، ومعه فرسانه، وأتباعه، ومرترزته، وحاشيته، وثيابه وفرسه الحربي وقد تزين بشكل رائع بالذهب والفضة، وكل واحد منهم كان يتبارى مع الآخر بالجمال وبالابداع والاختراع، وقد اعتنى كل رجل منهم باظهار نفسه وعرضها بعناية فائقة، وكانوا في كل يوم يدرّبون أنفسهم ويشغلونها

بالمبارزات، وبالصيد، وبالمنازلات، وبكل نوع من أنواع العروض العسكرية، ولقد اختص كل واحد منهم أو امتاز بقطعة من الأرض إلى جانب قصره أو قلعته.

وسكن هناك أيضاً من أجل القتال ضد المسلمين، ولصالح الايمان الكاثوليكي مقدم رهبان فرسان الداوية مع فرسان مسلحين، وكذلك مقدم رهبان طائفة القديس يوحنا للقدس، مع فرسان مسلحين، وأيضاً مقدم رهبان بيت طائفة التيوتون مع فرسان مسلحين، ومثل ذلك مقدم رهبان طائفة القديس توماس أوف كانتربري مع فرسان مسلحين، وكذلك مقدم وفرسان طائفة القديس لعازر مع فرسان مسلحين، ولقد سكن هؤلاء جميعاً في عكا، وكانت مقار قيادات طوائفهم هناك، وقد قاتلوا هم وأتباعهم ليل نهار ضد المسلمين.

وسكن أيضاً في عكا هناك أغنى التجار تحت قبة السماء، وقد تجمع هؤلاء واحتشدوا معاً هناك من جميع أمم الأرض، فقد كان هناك بيازنة، وجنوين، ولومبارد، الذين ضاعت المدينة بسبب خصوماتهم اللعينة، لأنهم عدوا أنفسهم وتصرفوا مثل النبلاء، وقطن هناك أيضاً تجار على درجة عالية من الثراء من الشعوب الأخرى، لأنه من شروق الشمس حتى غيابها كانت تجلب جميع أجزاء الدنيا التجارات إلى ها هنا، وجرت العادة بجلب كل شيء كان موجوداً في العالم ونظر إليه على أنه رائع أو غريب إلى هذه المدينة، وذلك بسبب النبلاء والأمراء الذين سكنوا هناك، وسيحتاج الأمر إلى وقت طويل للحديث عن الأبحار الأخرى لعكا مع مفاتها ومحاسنها هناك، ولايستطيع أي إنسان أن يتحدث بشكل كامل عنهم.

ولقد كانت هذه مدينة عكا الواسعة الشهيرة، التي عرفت فيما مضى باسم بطوليس، التي جرى فيها قتل يهوذا(؟) المكابي بشكل خياني من قبل تريفون، وذلك حسبما جاء في سفر المكابيين، وبالوقت نفسه هذه

كانت مدينة عكا التي كان فيها وثن بعل زبوب، وكان ذلك في الوقت الذي سقط فيه آحاز، ملك إسرائيل من عليته التي في السامرة فمرض، فقال لخدمه: «اذهبوا واسألوا بعل زبوب إله عقرون إن كنت أبراً من هذا المرض؟» وذلك حسبما جاءت الرواية بالتفصيل في سفر الملوك (الثاني: ١/٢).

٢٦ — فقدان مدينة عكا وضياعها

وبعدما تحدثت عن مجد عكا وجمالها، سوف أتحدث إليكم الآن بشكل موجز عن سقوطها وخرابها، والسبب في خسارتها، وذلك حسبما الحكاية تحكى من قبل رجال مستقيمين وصادقين، وكانوا يتذكرونها بشكل جيد، ففي الوقت الذي كانت فيه الأعمال الكبيرة ماضية في عكا حسبما تحدثت عنها، تفجر بإثارة من الشيطان خلاف في لومبارديا بين حزبي الغولفيين والغيليين، الأمر الذي جلب جميع الشرور على الصليبيين، فاللومبارد الذين كانوا يسكنون في عكا تحزبوا واتخذوا مواقف في هذا الخلاف هي نفسها، ولاسيما البيازنة والجنويين، ذلك أنه لكل واحد من الفريقين كان هناك حزب قوي جداً في عكا.

وعقد هؤلاء الناس معاهدات وهدن مع المسلمين، من أجل أن يتفرغوا بشكل أفضل لقتال بعضهم ضد بعضهم الآخر في داخل المدينة، ولدى سماع البابا أوربان (١) بهذا حزن كثيراً من أجل الصليبيين ومن أجل الأرض المقدسة، وبعث باثني عشر ألفاً من العساكر المرتزقة عبر البحر لمساعدة الأرض المقدسة والمسيحية.

وعندما جاء هؤلاء الرجال عبر البحر إلى عكا، لم يفعلوا شيئاً مفيداً،

١ — حكم أوربان الرابع من ١٢٦١ حتى ١٢٦٤، وعلى هذا لا يمكن لهذه الأحداث أن تكون قد وقعت في أيامه، والمقصود هنا هو جيروم دي أسكولي الذي حكم باسم نيقولا الرابع ١٢٨٨ - ١٢٩٢ .

بل أقاموا ليلاً ونهاراً في الحانات وفي الأماكن سيئة السمعة، واعتقلوا التجار ونهبوهم وفعلوا الشيء نفسه مع الحجاج في المناطق العامة، وخرقوا المعاهدة، واقترفوا كثيراً من الشرور.

ولدى سماع الأشرف خليل سلطان القاهرة بهذا، وكان قد عرف بالصراع الكريه بين سكان عكا، وبما أنه كان رجلاً حكيماً جداً، وفي غاية القدرة والقوة العسكرية، وشجاعاً في أعماله، دعا إلى اجتماع عام لمستشاريه، كما عقد مجلساً عاماً للشورى في القاهرة، حيث تشكى بأن الهدنة قد خرقت مراراً وتم تجاهلها، مما ألحق الضرر به وبشعبه، وبعد نقاش عقد حول هذه القضية، حشد جيشاً عملاقاً، ووصل إلى مدينة عكا دون أن يلقي أية مقاومة، وذلك بسبب خصامات الفرنجة مع بعضهم بعضاً، وقام بقطع جميع الكروم وأشجار الفاكهة، وشعث جميع البساتين والحدائق التي كانت جميلة وممتعة هناك، وعندما رأى مقدم الداوية هذا، وكان رجلاً حكيماً جداً، وفارساً شجاعاً خشي من أن سقوط المدينة بات وشيكاً، بسبب النزاعات بين سكانها، فعقد اجتماعاً مع رهبانه حول إيجاد طريقة، يمكن بها إعادة السلام، وخرج من المدينة لمقابلة السلطان، الذي كان صديقاً خاصاً به وقريباً منه كثيراً، ليسأله عما إذا كان من الممكن بأية وسيلة من الوسائل إعادة العمل بالهدنة المخروقة، وقد حصل على هذه المطالب من السلطان، وكان ذلك بسبب حبه للسلطان، والتقدير الذي أبداه السلطان نحوه، وبات من الممكن إعادة العمل بالهدنة المخروقة شريطة أن يدفع كل إنسان في عكا بنساً بنديقياً، وعلى هذا كان مقدم الداوية مسروراً، وترك السلطان، ودعا جميع السكان، وألقى فيهم موعظة في كنيسة القديس الصليب، وبين لهم كيف أنه بالتهاستاته، تمكن من إقناع السلطان، بالموافقة على إعادة العمل بالمعاهدة المخروقة، بأن يدفع كل واحد من الشعب بنساً بنديقياً واحداً، فبذلك يمكن تسوية كل شيء وإعادته إلى السكون، ونصحهم بكل

وسيلة بأن يفعلوا ذلك، وأوضح أن الصراعات بين سكان المدينة يمكن أن تجلب أسوأ الشرور على المدينة، لابل أكثر من هذا، وهذا ما وقع بالفعل.

لكن عندما سمع الناس هذا، صرخوا بصوت واحد، بأنه كان خائناً للمدينة، وأنه كان مجرماً يستحق الموت، وعندما سمع المقدم هذا، غادر الكنيسة، وبصعوبة نجا حياً من أيدي الناس، وحمل جوابهم إلى السلطان، وعندما سمع السلطان هذا — وكان يعلم أنه بسبب النزاعات بين الناس ما من أحد منهم، سوف يقدم أية مقاومة — أمر بنصب خيمة، وأقام ستين آلة، وحفر كثيراً من الانفاق تحت أسوار المدينة، وهاجم المدينة لمدة أربعين يوماً، ليلاً ونهاراً، بدون توقف، بالنار، والحجارة، والسهم، حتى بدا الهواء يابساً من كثرة السهام، ولقد سمعت واحداً من الفرسان الصادقين جداً يقول بأن جميع الحراب التي كانت على وشك الرمي بها من أحد الأبراج بين المسلمين، قد عطلت بوساطة نشاب المسلمين، قبل أن تترك يده، وكان آنذاك في جيش السلطان ستمائة ألف رجل مسلح، كانوا مقسمين إلى ثلاث مجموعات، وعلى هذا كان هناك دوماً مائة ألف تولت حصار المدينة، وعندما كان هؤلاء يشعرون بالتعب، كانت مائة ألف جديدة تأخذ مكانهم، وهكذا دواليك، ومثل هذا وقف مائتا ألف أمام أبواب المدينة جاهزين للقتال، وكان واجب المائتي ألف المتبقين تزويدهم بكل شيء كانوا يحتاجون إليه، ولم تكن الأبواب مغلقة ولم تغلق أبداً، ولم تكن هناك ساعة من النهار من دون بعض القتال الحاد، الذي قاتلوا به ضد المسلمين، وذلك من قبل الداوية وفرسان الطوائف الأخرى التي كانت مقيمة هناك، لكن أعداد المسلمين تزايدت بسرعة فائقة، فبعد مقتل مائة ألف منهم حل محلهم مائتي ألف جدد، ومع هذا ما كان الفرنجة ليفقدوا المدينة، أمام هذا الحشد كله، لو أن أحدهم عاون الآخر بإخلاص، ذلك أنهم

عندما كانوا يجاربون خارج المدينة، كانت فئة ما تهرب وتترك الفئة الأخرى لتواجه القتل، أما في داخل المدينة فإن إحدى الفئات كانت تتأبى الدفاع عن قلعة أو قصر يعود إلى فئة أخرى، لابل أكثر من هذا كانت عن قصد تترك قلاع الفئة الأخرى، وقصورها، وحصونها، يجري اقتحامها والاستيلاء عليها من قبل الأعداء، وكان كل واحد منهم أن يعرف أن قلعته، وموضعه قوي حصين، ولا يهيمه قلعة أو حصن أي إنسان آخر.

وفي أثناء هذه الفوضى دافع مقدمو الطوائف مع فرسانهم عن أنفسهم، وقاتلوا دونما توقف ضد المسلمين، وذلك حتى قتلوا كلهم تقريباً، وفي الحقيقة سقط مقدم ورهبان طائفة التوتون مع أتباعهم وأصدقائهم، أمواتاً في وقت واحد، وساعة واحدة كانت هي نفسها.

واستمر هذا، وجرت عدة معارك، ووقع عدة آلاف قتلى على كل طرف من الطرفين، وحل أخيراً وقت الجزاء بالنسبة لذنوبهم، واقترب موعد سقوط المدينة، وحلّ مع مجيء اليوم الأربعين للحصار، وكان ذلك في سنة ألف ومائتين واثنين وتسعين (الصحيح: إحدى وتسعين) لتجسيد رينا، وفي اليوم الثاني عشر من شهر أيار، في هذا اليوم جرى الاستيلاء على مدينة عكا، المدينة الأكثر جلالاً ومجداً، والتي هي زهرة، ورئيسة، وفخر جميع مدن الشرق، وعندما سمع سكان المدن الأخرى، أي مدن: يافا، وصور، وصيدا، وعسقلان، بهذا تركوا جميع ممتلكاتهم خلفهم، وهربوا إلى قبرص.

وعندما استولى المسلمون على عكا أولاً، دخلوا إليها من خلال ثغرة أحدثوها في السور على مقربة من قلعة ملك القدس، وبعدها صاروا بين الناس في داخل المدينة، ظلت كل فئة تتأبى تقديم المساعدة للفئة الأخرى، بل تابعت كل فئة الدفاع عن قلعتها وقصرها، وواجه المسلمون حصاراً أكثر طولاً، وتوجب عليهم القتال بتقدم أقل، وهم في

داخل المدينة، من تقدمهم عندما كانوا في خارجها، لأنها كانت محصنة بشكل مدهش.

وفي الحقيقة جاء في أخبار سقوط عكا، أنه بسبب ذنوب الناس، قاتلت العناصر الأربعة، إلى جانب المسلمين، فأول كل شيء صار الهواء كثيفاً إلى درجة الظلام، وصار الجو متلبداً مغيباً، إلى حد أنه أثناء اقتحام إحدى القلاع، أو أحد القصور، أو الحصون، أو إحراقه كان من الصعب على الناس الآخرين رؤية القلاع الأخرى والقصور، حتى يجري مهاجمة قلاعهم وقصورهم، وللهولة الأولى كان بإمكانهم الدفاع عن أنفسهم بشكل جيد، لو أنهم استطاعوا أن يتوحدوا، وقاتلت النار ضد المدينة لأنها ابتلعتها، وقاتلت الأرض ضد المدينة لأنها شربت دماء أهلها، وقاتلت المياه ضد المدينة، لأن الشهر كان شهر أيار، ففي هذا الشهر اعتاد البحر على أن يكون هادئاً جداً.

وعندما رأى أهل عكا بوضوح أنه بسبب ذنوبهم، وظلام الهواء، لم يعد بإمكانهم رؤية أعدائهم، هربوا إلى البحر، راغبين بالابحار إلى قبرص، وفي البداية لم يكن هنالك ريح مطلقاً في البحر، لكن ما لبث أن ثارت عاصفة كبيرة، حالت دون أية سفينة سواء أكانت كبيرة أم صغيرة من الاقتراب من الشاطئ، وكثير ممن كانوا قد شرعوا بالسباحة نحو السفن قد غرقوا، ومهما يكن من أمر، لقد نجا إلى قبرص أكثر من مائة إنسان.

ولقد سمعت من سيد صادق جداً، ومن رجال آخرين موثوق بهم، كانوا آنذاك حضوراً، أن أكثر من خمسمائة من أكثر السيدات نبلاً، ومن الفتيات، ومن بنات الملوك والأمراء، انحدرن نحو شاطئ البحر، عندما كانت المدينة على وشك السقوط، وكن قد حملن معهن على صدورهن أدوات زينتهن من الذهب والحجارة الكريمة التي لا يمكن تقدير ثمن لها، وصرخن، ونادين، وسألن هل هناك أي بحار يتولى أخذ

جواهرهن جميعها، واختيار أية واحدة منهن أن تكون زوجة له، شرط أن يأخذهن، ويحملهن، ولو عاريات إلى أي بلد أمين أو جزيرة، واستقبلهن جميعاً أحد البحارة في سفينته، وأخذهن وعبر بهن إلى قبرص، مع جميع أمتعتهن مقابل لاشيء، وذهب بحال سبيله، لكن من كان هو، ومن أين جاء، وإلى أين ذهب، ما من إنسان يعرف حتى هذا اليوم، هذا وتعرض عدد كبير جداً من سيدات نيبيلات آخر وقتيات إلى الغرق أو القتل، ويحتاج الأمر إلى وقت طويل للحديث عن الحزن الكبير والآلام التي كانت هناك.

وعندما كان المسلمون في داخل المدينة — إنما قبل استيلائهم الكامل عليها — استمر القتال من قلعة إلى قلعة، ومن مكان إلى مكان حصين آخر، وبذلك هلكت أعداد كبيرة من الناس على كلا الجانبين، حتى أنهم مشوا فوق جثثهم، وكأنهم يسرون فوق أحد الجسور، وبعدما جرى فقدان جميع المدينة الداخلية، هرب الذين بقيوا أحياء إلى قلعة الداوية التي كانت حصينة جداً، وقد جرى حصارها على الفور من جميع الجهات من قبل المسلمين، ومع ذلك دافع الصليبيون عنها بشجاعة لمدة شهرين، وسقط أمامها جميع أعيان وقادة جيش السلطان قتلى، لأنه بعدما جرى إحراق المدينة القائمة بين الأسوار كلها، بقيت أبراج المدينة وقلعة الداوية، التي كانت في داخل المدينة، ولذلك تمكن أهل المدينة من إبقاء المسلمين داخل المدينة، ومنعهم من الخروج منها، مثلما فعلوا من قبل حين حالوا دون دخولهم إليها، وظل الحال هكذا حتى لم يبق أحد من المسلمين الذين دخلوا إلى المدينة أحياء، ذلك أنهم جميعاً سقطوا بالنار أو بفعل السيف، وعندما رأى أعيان المسلمين أن بقيتهم تمددوا أمواتاً، وأنهم هم أنفسهم غير قادرين على النجاة من المدينة، هربوا لاتخاذ ملاجئ لأنفسهم في الأنفاق التي كانوا قد حفروها تحت البرج الكبير، أملاً منهم بأنهم سوف يجدون طريقاً للنجاة إلى الخارج من

خلال السور، لكن الداوية والذين كانوا في القلعة، عندما رأوا أنهم غير قادرين على إيذاء المسلمين بالحجارة وماشابه ذلك بسبب الأنفاق التي كانوا فيها، لغموا ما تحت البرج الكبير العائد للقلعة، وتركوه ينهار فوق الأنفاق وفوق المسلمين هناك في الداخل، وهكذا هلكوا جميعاً سواء، وعندما رأى المسلمون الآخرون الذين كانوا خارج المدينة جميع ما حدث، أسقط بأيديهم تماماً، وعقدوا بشكل خياني هدنة مع الداوية والصليبيين، على شرط أن يتخلوا عن القلعة، مقابل السماح لهم بأخذ جميع مقتنياتهم معهم، وأنه ينبغي تدميرها، وأن يعيدوا بناء المدينة وفق شروط محددة، وأن يعودوا إلى السكن فيها بسلام كما كان الحال من قبل، وصدّق الداوية والصليبيون الآخرون هذا ووثقوا به، وسلموا القلعة وخرجوا منها، ونزلوا من أبراج المدينة، وعندما استحوذ المسلمون بهذه الوسيلة على كل من القلعة وأبراج المدينة، قتلوا جميع الصليبيين سواء، واقتادوا الأسرى إلى القاهرة، وبذلك بقيت عكا فارغة ومهجورة حتى هذا اليوم.

وفي عكا والأماكن الأخرى تم فقدان ما يقارب مائة ألف وستة آلاف رجل قتلاً أو أسراً، ونجا من هناك أكثر من مائتي ألف، أما بالنسبة للمسلمين، فقد قتل أكثر من ثلاثمائة ألف، كما هو تماماً معروف حتى هذا اليوم وأمضى المسلمون أربعين يوماً أولاً في حصار المدينة من الخارج، وخمسين يوماً في المدينة في داخلها، قبل الاستيلاء عليها، وشهرين في حصار الداوية.

وعندما سقطت مدينة عكا المجيدة على هذه الصورة، أنشد جميع شعب الشرق لسقوطها أناشيد البكاء والرثاء، مثلما اعتادوا أن ينشدوا على قبور أمواتهم، وبكوا على جمال عكا، وعظمتها، وعلى مجدها، ومازالوا يفعلون ذلك حتى هذا اليوم، ومنذ ذلك اليوم ترتدي النساء المسيحيات — سواء أكن من السادة أو من العاديين البسطاء — من

يسكن على الشاطئ الشرقي (للبحر المتوسط) ثياب السواد حزناً، وحداداً، وتفجعاً على فقدان مدينة عكا العظيمة، ومازلن يفعلن ذلك حتى هذا اليوم.

وعمل المسلمون بعد هذا، لعدد كبير من السنين، وبذلوا كل جهد ممكن، لاجتثاث ولتدمير جميع الأسوار تماماً حتى الأساسات، وفعلوا الشيء نفسه بالنسبة للأبراج والقلاع والقصور، خشية من أن يعاود الصليبيون عمارتهم، لكن كان من المستحيل بالنسبة إليهم تمكنهم من تدمير كل شيء واجتثاثه حتى آخر رجل، وهكذا بقيت جميع الكنائس، والأسوار، والأبراج، وعدد كبير جداً من القلاع والقصور، سليمة إلى أبعد الحدود، وإذا ما سمح الرب، من الممكن — بعناية كبيرة — استردادها وترميمها، وإعادتها إلى أوضاعها الماضية.

ويسكن الآن في هذه الأيام حوالي الستين في المرتزة المسلمين في عكا، بمثابة حامية للمدينة وللميناء، ويؤمن الانفاق على عيشهم من خلال الحرير والطيور، لأنه يوجد في عكا كثير من الدجاج والحمام، إلى حد أن جميع الطيور التي يمكن رؤيتها في المنطقة لا يمكن مقارنتها بهم، وهؤلاء المرتزة لديهم شغف بالألمان، فعندما يلاحظون وجودهم من خلال مظهرهم، يسرون إليهم مباشرة، ويشربون الخمر معهم بعمق، على الرغم من أنها محرمة بشريعتهم.

وبهذا أكون قد حدثتكم كيف تم فقدان مدينة عكا المجيدة بسبب الخصام، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، انتقلت جميع أمجاد الأرض المقدسة، وأمجاد ملوكها، وأمجاد أمرائها، وبقية أعيانها، إلى قبرص، وذلك حسبما سمعتم من قبل.

٢٧ — حول غزة وأشدود

ولأعد الآن إلى موضوعي: يذهب الانسان من عكا إلى غزة، التي

كانت فيما مضى مدينة جميلة جداً، تابعة للفلسطينيين، وهي الآن مهجورة تقريباً، وهي المدينة التي حطم شمشوم أبوابها الحديدية، وحملها معه إلى الجبل، والمسافة من عكا إلى غزة ثلاثة وعشرين ميلاً، ويرى الانسان على الطريق الأماكن التالية، لكن قبل المضي بعيداً، أقترح أن أحدثكم ببعض الشيء حول مدن الفلسطينيين، فحول غزة تقوم بلاد فلسطين، حيث نرى فيها أربع مدن عظيمة جداً، قد وجدت فيما مضى، وقد آل الآن مأها كلها إلى قرى صغيرة، وذلك باستثناء مدينتان هما: أشدود و غاث، وعليك أن تعرف أن البلاد التي عرفت من قبل باسم فلسطينا، تعرف الآن باسم فلسطين، وأن المدينة التي كانت تعرف فيما مضى باسم أشدود اسمها الآن أرسوف، التي غالباً مارأيت صاحبها النبيل (بالين دي ايبيلن في سنة ١٣٦٨)، والمدينة التي عرفت فيما مضى باسم غاث اسمها الآن اسكندرون (جنوب غربي صور)، وقد منحها الاسم الجديد بلدوين ملك القدس، عندما كان يبنها، ففي هذه المدينة كان جالوت قد ولد، وهو الذي قتله داود، ومن الممكن قراءة الكثير من العجائب حول هذه المدينة.

ومن هذه المدينة وبجميع الاتجاهات، نجد أن جميع المدن، والقرى، والقلاع، والأماكن القائمة على ساحل البحر المذكور، وذلك لعمق أربعة أميال في داخل اليابسة، هي جميعاً مشعثة ومدمرة وباقية هكذا حتى هذه الأيام، لأنه بعدما جرى فقدان الأرض المقدسة، وسورية وعكا، ارتأى المسلمون بأن عليهم الحفاظ عليهم وتملكهم بسلام، وأعني بذلك جميع الأماكن المتقدم ذكرها، والمدن، والقرى، والقلاع، القائمة على شاطئ البحر، إنما في ذلك الوقت كان شعب غاث أو اسكندرون قوياً جداً، ورجالها شجعاناً بارعين باستخدام السلاح، وفي الحقيقة لقد قيل بأنه في مثل ذلك المكان الذي امتلك مثل هذه الطبيعة، يلد الرجال أكثر حدة وعنفاً من سواهم من الرجال الآخرين، وأهل

غاث هؤلاء أنفسهم مع أن تعدادهم قليل، حيث هو أقل من ألف انسان، هم نبلاء وشجعان، ويعرفون جميع الطرقات في البلاد مع دروبها، لأنهم اعتادوا على التجول هنا وهناك، والسلاح بأيديهم، ويعملون بالأجرة، ويعرفون طبائع وعادات المسلمين، والداخل إلى هناك، والخارج من البلاد، وهم لا يعرفون الراحة، بل يغدون ذهاباً وإياباً، بشكل مستمر، في البر والبحر، وفي الليل والنهار، ويلبسون ثياب المسلمين، ويخفون الأسلحة تحتها، وعندما يكونون بين المسلمين يتصرفون بمثابة تجار مسلمين، ويدخلون معهم إلى مدنهم وقراهم، ويأكلون ويشربون مع بعضهم بعضاً، وعندما يجدون أنهم يمتلكون فرصة جيدة مواتية، يأخذونها ويحرقون البلدة والقرية، التي صدف وكانوا بها، ويقتلون المسلمين أو يبيعونهم رقيقاً، وعندما وجد المسلمون أنفسهم غير قادرين على الوقوف ضد هؤلاء القوم، هجروا مدنهم، وقراهم، وذهبوا بعيداً، لكن نادراً ما نجوا، وهكذا فإن جميع الأماكن القائمة على طول ساحل البحر، والمدن، والقرى، والأماكن الأخرى حتى عمق أربعة أميال في داخل اليابسة، قد غدت معزولة تماماً ومهجورة حتى هذا اليوم.

ولقد سمعت من رجال صادقين، كانوا موجودين عندما كانت هذه الأمور تحدث، وسمعت أيضاً ما يروى بين الناس والحكايات حولهم التي ماتزال باقية، أن خوفاً عظيماً حل بساح المسلمين، بسبب رجال غاث هؤلاء الذين تقدم ذكرهم، إلى حد أنه حتى مسافة ستة أيام بعيداً عنهم، اعتادت الأمهات على تهدئة أولادهم الباكين بكلمة «اسكندرون» فضلاً عن هذا ما من رجل يتجرأ على مقابلة آخر على الطريق، لأن شعب اسكندرون، لا يجعلون انساناً أميناً على نفسه من دون تيقظ وحذر.

وفي عودة إلى موضوعي أقول: على مقربة من عكا هناك نهر ليس

كبير الحجم اسمه نهر النعامين Belen (نهر بعل) ويجرف هذا النهر نوعاً من الرمل الزجاجي، يحمل من هناك إلى بلدان نائية، وهناك نهر آخر، على أحد طرفي عكا، لا يمكن لأفعى أو لأي من الهوام العيش فيه، مع أن بإمكانهم العيش والازدهار على الطرف الآخر، وقد تبرهن أنه إذا ماجرى رمي أفعى عبر هذا النهر تموت مباشرة.

٢٨ - جبل الكرمل

وعلى مقربة من عكا أيضاً، على الطرف الأيمن، وعلى بعد ثلاثة أميال، وليس بعيداً عن البحر، يقوم جبل الكرمل، الذي هو أملس وعريض، وعلى غاية من الجمال في الذروة، المزينة بكثير من النباتات والأماكن البهية، وقد سكن هذا الجبل النبي إيليا، وصنع كثيراً من المعجزات وعلى هذا الجبل، حدث أيضاً، حسبما تحدث إيليا، ابتلعت نار من السماء قائد الخمسين، التابع لآحاز ملك اسرائيل، وصلى على الجبل إيليا ودعا أن لا تسقط الأمطار على الأرض، وبالفعل لم تسقط لمدة ثلاثة أعوام وستة أشهر، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك، وعلى هذا الجبل من الممكن أن نرى أنه قد قام فيها مضي دير جميل جداً، بني وكرس على اسم القديسة مريم، ويعرف الرهبان الذين جاءت أصولهم من هناك باسم الكرملين حتى هذا اليوم، وهم رهبان متسولون، ويمكن للانسان أن يرى أنهم امتلكوا فيها مضي خمسين ديراً في الأرض المقدسة.

ويوجد على أول أطراف الجبل نبع نقي تجري مياهه إلى البحر، ومن مياه هذا النبع اعتاد النبي إيليا على الشرب، ولهذا يعرف باسم نبع إيليا حتى هذا اليوم، وفي مكان آخر عند سفح الجبل يمكن للانسان أن يرى أن مدينة قد قامت هناك، كانت ملكاً للداوية، هي الآن مهدمة تماماً، واسمها حيفا، وليس بعيداً عن هذه المدينة هناك نبع صغير، هو الآن واحد من مصادر نهر الأردن، وعند نهاية جبل الكرمل كان هناك فيها مضي مدينة جميلة هي الآن مهدمة، اسمها زرعين، فهنا أقدمت إيزابل

على انتزاع كرم نابوت ولهذا رميت في المكان نفسه، حسبما نقرأ في سفر الملوك (الأول: ٢١)، وعلى مقربة من هذه المدينة سهل مجيدو، حيث قُتل يوشع ملك يهوذا، وليس بعيداً عن جبل الكرمل، وعلى طرف جهة اليسار، قامت فيما مضى مدينة جميلة، هي الآن مهدمة، اسمها الصفورية، وكانت قائمة على رابية، ففيها ولدت القديسة حنة، أم مريم المباركة.

وبعد العبور فوق جبل الكرمل، يقوم الانسان بعبور نهر، كان واحداً من روافد الأردن، ويصل إلى قيسارية فلسطين، التي كان اسمها فيما مضى دور، واسمها الآن قيسارية فلسطين، غير أنها مدمرة كلياً، وقد كان في هذه المدينة كنيسة جميلة، بنيت من خلال بيت كورنيلوس، الذي حوله بطرس إلى الايمان الصحيح، وكانت هذه المدينة نفسها، قد آلت، بعد الاستيلاء على الأرض المقدسة، إلى ملكية فارس من هذه المناطق [بلاد المؤلف] اسمه دي هورن Horne ، وكانت أرملة ختنه حية حتى أيامي، لأنني غالباً ما تحدثت معها حول هذا الموضوع.

وإذا ما سافر الانسان من قيسارية، يصل أولاً إلى ما كان فيما مضى مدينة جميلة، لكنها الآن مهجورة، واسمها قلعة الحجاج (عثليت)، وكانت هذه تعرف بالقديم باسم أرسوف (كذا)، وكانت هذه المدينة قد أعطيت إلى الداوية من قبل غودفري دي بولليون، الذي كان أول ملك صليبي للقدس، وذلك حفظاً لذكراه نفسه.

وإذا ما سافر الانسان من أرسوف، أو قلعة الحجاج، يصل إلى مدينة جميلة جداً، وهي مليئة بالسكان حتى هذا اليوم، اسمها عسقلان، ويذهب الانسان من عسقلان ليأتي إلى يافا التي هي مدينة قديمة جداً، وجميلة، وهي قائمة على شاطئ البحر، وإلى مرسى هذه المدينة دخل النبي يونه، عندما حاول أن يهرب من وجه الرب، وهي على بعد سفر حوالي اليومين من القدس، لكن الحجاج لا يستطيعون النزول في الميناء،

وعلى اليابسة، ليس بعيداً عن يافا، تقوم مدينة جميلة، عرفت فيما مضى باسم الرملة، لكن اسمها الآن بعل Bael، وهي قائمة فوق موقع جميل جداً، وبهبج، وممتع، وهي مسكونة من قبل المسيحيين وخدمهم، ومن المعتقد أن ما من يهودي أو مسلم يستطيع أن يعيش فيها أو يسكن لمدة تزيد على السنة، وجميع الخمر الذي يشرب من قبل المسيحيين في القدس والأماكن الأخرى يجلب من هناك، وعلى الجانب الأيسر من مدينة الرملة هذه، أو بعل، تقوم مدينة جميلة، حسنة الاسكان، اسمها ديوسبولس ولها اسم آخر هو اللد، وفي هذه المدينة واجه الشهيد المجيد، القديس جرجس الشهادة، وقطع رأسه، وهناك كنيسة فائقة الجمال، حسنة التزيين بأعمال الفسيفساء والرخام، وفي داخلها، في السدة، يوجد المكان الذي جرى إعدامه صبراً فيه، وهو معروض للناس عموماً.

وبعد رؤية هذه الأشياء جميعاً، يصل الانسان أولاً إلى غزة، التي تحدثت عنها بعض الشيء، لأنني تحدثت إليكم بعض الشيء أيضاً عن المدن الأخرى في فلسطين، والمسافة بين عكا وغزة هي سفر أربعة أيام، ويزور الانسان خلال السفر جميع الأماكن المتقدمة الذكر، وبعد سفر الانسان من غزة يصل إلى قلعة اسمها بالعربية دار، وهي آخر مكان في سورية لدى النزول إلى مصر، وإذا ما ذهب الانسان بهذا الاتجاه يخلف القدس على جهة يساره، وذلك على بعد عشرين ميلاً أو قرابة ذلك، وهذه الطرق ليست طرقاً عامة للحجاج، غير أنها طرق جيدة لرؤية أوائل العربية ومصر، وكل ما هو موجود هناك، ويذهب الانسان من قلعة دار إلى مصر عبر صحراء رملية، وذلك خلال سبعة أيام، وفي هذه الصحراء ليس هناك نقص بأي شيء محتاج، باستثناء الماء، الذي من الممكن حمله في أوعية جلدية على ظهور الجمال، وهناك في نهاية سفر كل يوم يمكن العثور على نزل إسلامية جيدة، حيث يجد فيها الانسان

كل ما يحتاجه، باستثناء الخمر.

٢٩ - حول مصر

وبعد عبور هذه الصحراء يدخل الانسان إلى مصر، ولدى دخوله إليها يجد فيها أماكن على درجة عظيمة من الجمال والبهجة، مليئة بجميع الأشياء الجيدة، التي يمكن لقلب الانسان أن يتصورها، وهي مليئة بكل شيء يحتاجه الانسان إلا الخمر، ولدى متابعة السفر نحو باب اليون (بابل الجديدة - الفسطاط) يصل الانسان إلى قرية جميلة جداً وممتعة اسمها بليس، وبذلك يخلف الاسكندرية ودمياط على ساحل البحر، وإذا فعل ذلك يذهب الانسان على طول الطريق السلطاني العام، فيصل إلى القاهرة وباب اليون، التي تضم الآن مدينتين عظيمتين جداً، ليستا بعيدتان عن بعضهما، وتقومان على طرف النيل، نهر الفردوس، والمدينة التي كان اسمها فيما مضى قاهرة، تدعى الآن القاهرة، وسكن في هذه المدينة في القديم فرعون، عندما تولى تعذيب العبرانيين، وهنا أيضاً آيات ومعجزات، صنعت من قبل موسى وهرون، حسبما جاء بالتوراة، وعلى مقربة من القاهرة، فوق الجبل، الذي هو ليس عالياً، لكن صخري، يقوم قصر السلطان، ويوجد هناك أشياء كثيرة جداً غريبة وعجيبة، وأهم شيء يراه الانسان في هاتين المدينتين، هو الفيلة، وحيوانات الغرفين Gryphons وعليك أن تعرف أن القاهرة أكبر من باب اليون (الفسطاط) وتبعد أكثر من رميتي سهم عنها، ذلك أن باب اليون قائمة على ضفة النيل، لكن القاهرة، قائمة على مسافة لا بأس بها عن النيل، والقاهرة الآن أكبر من باب اليون، لأنني سمعت من تجار قدروا أن القاهرة أكبر من باريس بسبع مرات، وفي القاهرة أبنية منخفضة مثل الأفران، ويوجد فيهم مدافئ، ويوضع في الداخل بيض فوق روث، وبوساطة هذه الحرارة تفقس الفراخ، وتخرج من البيض، ووقتها يأخذ المعلم هذه الفراخ، ويعطيها إلى امرأة عجوز، تتولى

العناية بهم وإطعامهم، وتضعهم في صدرها، مثلما تضع الدجاجة الفراخ تحت جناحيها، ويوجد في هذه المناطق أعداد لا تحصى من العجائز ليس لديهن أسباب ووسائل للعيش سوى تربية الفراخ والعناية بهم، ولهذا السبب تجمد الطيور هناك كثيرة مثل عدد رمال البحر، وغالباً ما يقوم أحد الفلاحين بسوق خمسة آلاف طير إلى السوق مرة كل أسبوع، مثلما يفعل الراعي حين يسوق أغنامه، ويأخذ معه جملاً أو دابة أخرى مع سلال، يتولى ملأها بالبيض الذي تبيضه الطيور وهي على الطريق، وعندما يأتي إلى السوق المخصص للطيور، لا يفقد ولا طيراً واحداً، كما لا تمتزج طيور إنسان مع طيور إنسان آخر، وهذا أمر بالحقيقة مدهش، وخاصة عندما تلتقي آلاف كثيرة من الطيور في مكان واحد، فضلاً عن هذا يوجد على مقربة من باب اليون مكان خصب جداً، فيه مراعي غنية جداً، واسم هذا المكان غوشن Goshen ، فهناك سكن البطريك يعقوب، بناء على توجيه من يوسف، وكان ذلك في أيام فرعون، فهذا ما رواه الكتاب المقدس لنا.

٣٠ - حول بستان البلسم

فضلاً عما تقدم، يوجد على مقربة من القاهرة، باتجاه الصحراء السورية، بستان البلسم، الذي هو من حيث المساحة نصف رمية حجر، وليس مسوراً بشكل جيد، أو كله مسيج، ويوجد في هذا البستان خمسة آبار، تتولى سقاية شجيرات وفروع البلسم، ولكل شجرة أو شجيرة حارس خاص، يتولى تنظيفها، والعناية بها وغسلها، بعناية تامة مثلما يتولى غسل جسده، ولا تنمو شجيرات أو فروع البلسم كثيراً، حيث لا يتجاوز طولها الذراعين، ولها أوراق مضاعفة ثلاث مرات، ولدى بداية آذار، عندما يحل وقت النضوج ويصبح قريباً جداً، تصبح العناية بها أكثر، وعندما تصبح ناضجة، يجري قطع الأغصان والفروع وجرحها، وذلك مثل عملية تقليم الدوالي، ويجري ربط الجروح أو

الأماكن المقطوعة بقطع من الموصلين، ومن أماكن الجروح والقطع يبدأ البلسم بالتقاطر، مثلما يسيل الماء من الدوالي، ويتدرب في قطع الموصلين المربوطة حول الجروح، ويجري تعليق كأس من الفضة تحت كل غصن مجروح، حيث فيه تتقاطر أفضل أنواع البلسم.

وعلى هذا تقطع الأشجار عندما يسيل البلسم، وفي ذلك الوقت يكون سلطان القاهرة مشغولاً جداً، حيث يكون شخصياً حاضراً في البستان، ويتولى حراسته بدقة، حتى لا يتمكن إنسان، إلا هو، من الحصول على نقطة من البلسم بأية وسيلة من الوسائل، وعندما يقدم نواب البابا، وسفراء بعض الملوك والأمراء من مناطق أجنبية، يعطي كل واحد منهم قارورة صغيرة من الزجاج، صنعت خصيصاً لهذه الغاية، ويكون في داخل هذه القارورة بعض البلسم، ولدى تقديم هذه الهدية، كان يعتقد أنه يعطي أثمن هدية يمكن أن تعطى.

وبعدما يتم ترسيب جميع البلسم الجيد والحقيقي بهذه الطريقة، يقوم الأوصياء على الأغصان بقطعها حتى نهاية كل واحد منها، ويأخذ كل واحد حصته، ويتولى غليهم بالماء، ووقتها نجد كل الذي بقي من بلسم في نهايات الأغصان يذوب مثل الدهن، ويطوف على وجه الماء مثل الزيت، ومن هناك يجري جمع هذا البلسم بملعقة، ووضعه في وعاء، ثم تركه حتى يتماسك، وذلك لبعض الوقت، ويلاحظ أنه حتى هذا البلسم له ثمن مرتفع جداً، ولأن هذا البلسم قد تعرض للغلي، يغدو لونه أحمر مع بعض المزيج من الأسود، غير أن البلسم الطبيعي الذي يتقاطر بشكل طبيعي، له لون النيذ، وعليك أن تعرف أن البلسم الطبيعي هو أعلى جوهرة في العالم، ولهذا السبب نجد البطارقة المقدسين، كانوا قد اعتادوا على مزجه بزيت مقدس من أجل المسح، وأي جسد لامس بلسماً طبيعياً، لن يتعفن ولن يفسد مطلقاً، وفي أثناء تقاطره طازجاً من الشجرة، إذا وقعت نقطة بيد إنسان، فهي سوف تسيل من خلال

الطرف الآخر، وتمر عبر يده، فضلاً عن هذا، إذا ما جرى وضع أربع نقاط أو خمس من البلسم الطبيعي في عين إنسان، على وشك أن تصبح عمياء، من انعدام الرطوبة، أو تقدم السن، أو أي ضعف آخر، ستبقى هذه العين على الفور، وإلى الأبد، تماماً مثلما كانت لحظة صب البلسم فيها، ولن تتحسن أوضاعها ولن تتدهور، وعلى هذا إنها لمغامرة خطيرة أن يحاول الإنسان مثل هذا، ما لم يكن الإنسان يائساً كلياً من بصره، وهذه الحقيقة واضحة مرئية في عدد كبير من أجساد رجال عظماء من العصور القديمة، التي تمّ العثور عليها سالمة تماماً غير فاسدة، لأنهم جرى دهنهم بالبلسم، ومثل هذا إذا كانت ندبة جرح جديد، عندما يكون قد بدأ ليشفى، إذا مسحت في أحد الأيام بنصف نقطة بلسم، وضع على ريشة، يعود على الفور جلد الجرح كما كان من قبل، ولا يترك أثراً، وما من إنسان يستطيع أن يرى أنه قد كانت هناك آثار ندبة على الاطلاق في ذلك المكان.

وزيادة على ما تقدم، إن البلسم المغلي هذا، هو عقار ممتاز جداً، وهو مفيد جداً من أجل نذب الجروح كما تقدم القول، وهو مفيد جداً بشكل خاص، عندما يسقط إنسان من مكان مرتفع، لأنه إذا ما تناول بعضاً منه، فإن جسده، الذي كان محطماً في الداخل، سوف يعود سالماً ثانية، وللبلسم المغلي أيضاً قدرة عظيمة جداً على العيون، وهو مفيد بدهن اللحوم حتى لا تفسد، ولكنه في جميع الأحوال وبالإجمال أقل قوة من البلسم الطبيعي، لأنه استخراج بالقوة بوساطة الغلي، في حين ترسب البلسم الطبيعي بشكل عادي.

وعليك أن تعرف أن الرجال المسيحيين فقط وحدهم قادرون على العناية ببستان البلسم ورعايتها، لأنه إذا ما حاول رجال آخرون العناية بها ورعايتها، فإنها تذبل على الفور وتموت، كما حدث مراراً وتبرهن على صحته، وسكنت مريم العذراء المباركة مع الطفل عيسى في

الموضع الذي تقوم فيه بستان البلسم الآن، وذلك عندما هربت إلى مصر من أمام هيرودس، وغسلت بشكل مستمر أغطيتها وملابس يسوع في الآبار التي تسقي البستان، ولهذا السبب من المعتقد بشكل صحيح أن البلسم ينمو هناك، لأنه بقدر مانعلم لا يوجد البلسم في أي مكان آخر في العالم.

وسوف يقتضي الحال وقتاً طويلاً للحديث حول فضائل البلسم الأخرى وأمجاده، يضاف إلى هذا أنني لا أستطيع أن أتذكرهم جميعاً، وكان في أيامي بين المشرفين المسيحيين أربعة من الألمان، كان أحدهم من شوارتزنبورغ *Schwartzenburg* ، وكان فيما مضى مرتداً عن المسيحية وكان آخر بعين واحدة اسمه نيقولا، وكان رجلاً جيداً جداً، فهذا ما أكده الأسرى المسيحيون، وكان قد أخذ أسيراً في عكا، لكن السلطان أطلق سراحه بسبب جودته، وجعله حارساً لسلاسل قاعة نومه.

٣١ — المسيحيون والقبور القديمة

وعليك أن تعرف أنه كان في أيامي في القاهرة والفسطاط حوالي أربعة آلاف أسير مسيحي، وذلك دون أن نذكر عدد الأطفال، وكان لهؤلاء الرجال ثلاثة بطاركة هناك ، ورجال دين، وكنائس، وآثار مبعجلة كثيرة للقديسين، وكان على رأس ذلك، الجسد الكامل للقديسة بربارة، وهي العذراء التي يتوسل إليها في أيامي عدد كبير من الملوك والأمراء، وتقديراً من السلطان لراحة الأسرى المسيحيين لم يقبل السلطان بقطع واحدة من أعضاء جسدها، ويحتفل الأسرى المسيحيون هناك بعيد أمسية القديسة بربارة، مثلما يحافظ الناس في هذه الأماكن على عيد القديس مارتن حيث يرسلون إلى بعضهم بعضاً بذور مختلف النباتات.

ويقوم على مقربة من الفسطاط، على الطرف الآخر من النيل، وذلك باتجاه الصحراء المصرية، كثير من القبور ذات أحجام مدهشة، من بينها

واحد فائق الجمال بني بحجارة كبيرة مربعة، وبين هذه القبور اثنين، هما
ضريحان مربعان كبيران جداً، وقد كانا فيما مضى على درجة فائقة من
الجمال، ويوجد على جدار أول واحد منهما كثير من النقوش المحفورة
باللاتينية، وبالاغريقية على الآخر، وبالعبرية على الثالث، وبالكلدانية،
وبكثير من اللغات غير المعروفة على الرابع، ونقش على الجدار الأول
باللاتينية الأبيات الشعرية التالية، وهي محفورة، وليس من السهل
قراءتها بسبب قدمها:

Vidi Pyramidas sinete, dulcissime Frater,
Et Tibiquod potui Lacrimas hic moesta profudi.
Et nostri memorem luctus hanc sculpo Querelam -
S(C) it nomen Decimi Pyramidis altra,
Pontics, Comitisque tuis, Trajane, Triumphis,
Lustra Sex intra censoris consulis esse

«وحيداً، يا للأسف، أرى الأهرامات
ولا يمكنني غير البكاء، يا أخي العزيز، من أجلك.
ولقد حفرت على الحجر، وأنا حزين، اسمك
ويعرف الأهرام العظيم الآن شهرة
أننيوس دوسيموس، الذي قاتل من أجل روما
مع تراجان، وعاد إلى الوطن منتصراً،
وهو الذي قضى حتى قبل ميلاده الثلاثين
وكان أخيراً، كاهناً أعظم، وقنصلاً، ومراقباً للأخلاق أيضاً».

وأدع تفسير هذه الأبيات إلى فهم القارىء وحكمه، ويطلق السكان المحليون على هذه القبور اسم أهراءات فرعون، وهناك عجائب كثيرة جداً من الممكن رؤيتها على مقربة من الفسطاط، وحسبما سمعت من كثير من الرجال الصادقين والتجار، كانت بابل القديمة، حيث كان يوجد برج بابل، تبعد مسافة سفر ثلاثين يوماً، عن باب اليون هذه، وذلك باتجاه الشمال — الشرقي، وهي في بلاد الكلدان على مقربة من بغداد، وعليك أن تعلم أنني قمت خلال مدة خمس سنوات بالتحدث ليلاً ونهاراً مع كل الناس الذين بإمكانهم التحدث بأي لسان بشري، وبعد البحث يوماً بين مختلف الشعوب، كان الذي حصلته هو بعض المعلومات، وهذه المعلومات لم أستطع تحصيل سواها من أي واحد من المخلوقات حول بابل القديمة، حيث كان برج بابل، ومعلوماتي لاتتجاوز مايلي:

٣٢ — بابل القديمة، أو بغداد.

يوجد في بلاد الكلدان الشرقية، مدينة فائقة الجمال، وجميلة، وقوية بلا حدود، وهي في هذه الأيام أفضل المدن في الشرق، اسمها بغداد، وهي قائمة على ضفتي نهر الفرات (كذا) الذي هو واحد من أنهار الجنة، ويقول الذين يسكنون هناك ويعتقدون، أنه على نصف ميل منها، أو ما يقارب ذلك، تقوم بغداد القديمة، وقد تبرهن هذا أيضاً بوجود الخرائب الكثيرة، والأكوام الهائلة من الأبنية من مختلف الأنواع، وكذلك من الحجارة، التي لها مشاهد غريبة عن بعد، لاسيما في الموضع الذي قام فيه برج بابل، حيث اختلفت الألسنة وتبلبلت، وهناك برهان آخر على هذا وجود طريق لايمكن قطعه بين الخرائب، وبين بغداد، وأيضاً بسبب وجود مخلوقات سامة، مع وجود كثير من العلامات التي تظهر بأن بابل القديمة قد قامت هناك، وبسبب ما يعتقد السكان المحليون بشكل ثابت تماماً، فهم يؤمنون أنه بسبب وجود هذه

المخلوقات السامة، انتقلت بابل القديمة، وأطلق عليها اسم جديد، هو بغداد، ولا أستطيع أن أحكي شيئاً آخر صادقاً حول بابل القديمة، كما أنني لم أعلم أي شيء زيادة، من أي إنسان في هذه المناطق.

ويوجد في مدينة بغداد الحالية الآن أغنى التجار وأحسنهم تحت قبة السماء، ولا يوجد في أي مكان من الشرق مثل هذه التجارات بكثرتها وتنوعها مما هو موجود هناك، واعتاد أن يسكن في هذه المدينة الخليفة، أي خليفة محمد (ﷺ)، الذي يقدم المسلمون إليه الطاعة في جميع الأمور، مثلما يفعل المسيحيون بالنسبة للبابا، خليفة القديس بطرس.

وسوف أحدثكم ببعض الأخبار حول خسارة مدينة بغداد هذه، وذلك حسبما قرأت حول الموضوع في مصنفات وتواريخ ملوك أرمينيا، وكما سمعت أيضاً من فارس مستقيم صادق كان هناك في ذلك الوقت.

وفي سنة ألف ومائتين وثمان وستين لتجسيد ربنا (كذا)، وبعدما استولى التتار على ممالك الشرق، كان آنذاك هيتوم Ayco ملكاً على أرمينيا، وقد قام بدافع ذاتي بالسفر إلى الخان العظيم، أي امبراطور التتار، من أجل زيارته، واستقبل هيتوم من قبله بلطف، ولأنه أبدى نحوه احتراماً ذاتياً وتشريفاً عظيماً، وذلك من أجل جعل الملوك الآخرين يقدمون بدافع ذاتي لزيارته ولقابلته، ولهذا كان مسروراً جداً، وشرف الملك بإعطائه كثيراً من الهدايا، وفي تلك الأثناء، وعندما كان ملك أرمينيا على وشك العودة إلى الوطن، طلب من الامبراطور منحه خمسة مطالب، كان أولها، وجوب أن يغدو الامبراطور وشعبه كله مسيحيين، وثانيها أن يكون هناك سلام دائم بين التتار والأرمن، وثالثها أن يقوم بتدمير جميع مساجد محمد (ﷺ)، وأن يكرسهم على شرف الرب، ورابعها أن يساعده على استرداد الأرض وإعادتها إلى المسيحيين، وخامسها أن يقوم بحصار بغداد، وتهديمها، وأن يزيل الخليفة من الوجود، وأعني بذلك خليفة محمد (ﷺ)، وأن يمحو اسمه، واستجاب

الامبراطور إلى هذه المطالب جميعاً عن رغبة وطواعية، وأكدها، وكذلك نفذها في كل مجال من المجالات، وذلك باستثناء المطلب الرابع الذي أعيق بسبب موته.

أما فيما يتعلق بالمطلب الخامس، الذي هو وجوب تهديم بغداد، وإزالة الخليفة، فقد كلف أخاه هولواؤن (هولاكو)، الذي كان آنذاك قد استولى على بلاد فارس، وأمره أنه ما أن يفرغ من إقرار أمور مملكة فارس، ويؤمن مسألة حمايتها، عليه الالتحاق بملك أرمينيا في حصار بغداد، وقد استجاب لهذا بكل رغبة، وبسرعة ما إن فرغ من إقرار أمور بلاد فارس، حتى نقل نفسه إلى مدينة نينوى العظيمة (الموصل)، واستراح هناك خلال الشتاء، وعندما جاء شهر آذار، ذهب مع ملك أرمينيا إلى بغداد، وحاصر الخليفة، وكلف قادته الأربعة الرئيسيين، الذين كان تحت إمرة كل واحد منهم ثلاثين ألفاً من التتار، بالقيام بحصار بغداد، بدون توقف حتى يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة، وهذا ما تم وجرى تنفيذه، ذلك أنهم استولوا على المدينة في اليوم الثلاثين، وقتلوا جميع السكان من رجل صغير وكبير سواء، وربحوا كثيراً من الأسلاب، من ذهب وفضة، وأحجار كريمة، وأنواع أخرى من الثروات، بشكل ومقدار لم يسمع بأن واحداً حصل على مثله من أية مدينة مهما كانت، وفي الحقيقة صارت بلاد التتار كلها غنية حتى هذا اليوم من هذه الأسلاب، ولا يوجد الآن في بلاد التتار كأس واحد من الذهب أو الفضة، إلاّ وجلب إليها من بغداد.

وبعدما جرى قتل جميع السكان أو أسروا، اعتقلوا الخليفة حياً، وقدموه إلى هولاكو، مع جميع كنوزه، التي كانت من الكثرة بمكان، أن هولاكو خشى من النظر إليها والتحديق بها، وقال وهو مندهش مخاطباً الخليفة: «كيف حدث أيها الرجل التعيس، أن امتلكت مثل هذه الكنوز العظيمة التي خشيت حتى من النظر إليها؟ فبها كان بإمكانك أن تقهر

العالم كله، وتضعه تحت نيرك، فلماذا لم تجند ما يكفي من العساكر المأجورة للدفاع عن مدينتك؟» وأجابه الخليفة قائلاً: «المشورة الفاسدة هي التي جلبت الدمار عليّ، لأنهم قالوا لي: حتى النساء يمكنهن الدفاع عن المدينة ضد التتار»، وعندها قال هولوكو: «إعلم أنك خليفة محمد (ﷺ) والمسؤول عن شريعته، وأنا لأجرؤ على إلحاق أي أذى بك، كما أنه من غير اللائق أن تعيش أنت وأن تأكل مثل بقية الناس الآخرين، لأنه من فمك تصدر تعاليم شريعة محمد (ﷺ) وعقيدته»، وقد أمر به فوضع في قصر جميل، وصب أمامه الذهب والفضة والحجارة الكريمة، واللائيء وقال له: «من فمك تصدر تعاليم شريعة عظيمة وعقيدة، ولذلك اللائق بك أن تأكل من طعام ثمين مثل هذا»، وهكذا سجن الخليفة في القصر، وبعد مضي اثني عشر يوماً وجد ميتاً من الجوع، ولم يقم من بعده خليفة لمحمد (ﷺ) في بغداد حتى هذا اليوم.

ويحكم في هذه الأيام امبراطور التتار بغداد، لكن سكانها بشكل رئيسي من المسلمين، وهم يعيشون تحت جزية ثقيلة جداً، وسمعت في هذه المناطق وقرأت كثيراً من الحكايات الحمقاء حول بغداد، وخلاصة ذلك، هو ما حصلت عليه كتابة، من أن ملك بغداد بعث برسائل إلى ملوك هذه البلدان، ودعاهم إلى إجراء منازلات ومبارزات هي زائفة كلها، لأنه ليس هناك من إنسان بإمكانه أن يتذكر منازلات أو مبارزات قد عقدت قط في بغداد، لأن الناس هناك يشغلون أنفسهم بأشياء أخرى.

وعلى مقربة من بغداد وعلى بعد سفر أربعة أيام، توجد مدينة أخرى، كان اسمها سوسة، فيها ازدهر أحاسوروس Ahasuerus ، وهذه المدينة التي كان اسمها فيما مضى سوسة تدعى الآن باسم طوروس Thaurus ، ويوجد في هذه المدينة شجرة جافة، يقال بأنه قد كتب

لامبراطور الرومان أن يعلق ترسه عليها، ويقول سكان هذه المدينة بأن ما من يهودي يمكنه أن يعيش فيها وأن يقيم، وعلى مقربة من طوروس هناك مدينة أخرى اسمها Cambeleth ، هي أيضاً من أملاك امبراطور التتار، ولقد قيل بأن هذه المدينة أغنى وأفضل من جميع مملكة السلطان.

٣٣ - نهر النيل

وفي عودة إلى موضوعي: النيل واحد من أنهار الجنة، يجري خلال مصر، ويمر قرب الفسطاط ودمياط، ويصب في البحر المتوسط على مقربة من الاسكندرية، وهو بحر أكبر وأعرض من نهر الراين، وموحد كثيراً، بسبب أنه يجري أحياناً في قلب الأرض، وأحياناً في الجبال، ولا يرى مجدداً، لمسافة ميلين أو ثلاثة أميال، ثم يخرج من الأرض ثانية، ويدخلها مجدداً، حتى يصل إلى مصر، حيث يجري بشكل مستقيم، وهو يحتوي على أسماك ممتازة وسمينة، ومياهه مفيدة وصحية تماماً، وعندما تنضح هذه المياه أولاً، تجدها فاترة، ولكن عندما توضع في جرة في الشمس تغدو باردة، وتساعد كثيراً على الهضم، ولم تكتشف ينابيع هذا النهر قط، وذلك باستثناء ما ذكرته الكتابات المقدسة حول هذا الموضوع، مع أن محاولات قد جرت مراراً لاكتشافهم، وفي أيامي أبقى السلطان سباحين كانوا قادرين على الحفاظ على أنفسهم في الماء بشكل طبيعي مثل الأسماك، ووعد السلطان هؤلاء الرجال بجوائز كبيرة، إذا ما اكتشفوا نبع النهر، و جلبوا له غصناً أخضر من شجر الصبر -Al- Ols كعلامة، ومضى هؤلاء السباحون في وقت واحد، ولم يعودوا لمدة ثلاثة أعوام أو أربع سنوات، ومات بعضهم على الطريق، وقال الذين عادوا أن الذي تبين أخيراً أن النهر ينحدر من الجبال بقوة هائلة لم يكن بمقدورهم فعل شيء تجاهها وضدها مطلقاً.

ويوجد في هذا النهر وحش شرير يدعى التمساح، وهو قوي جداً،

وحاد وسريع، ويسبب كثيراً من الأذى للذين يسكنون على مقربة منه، وكذلك لحيواناتهم، ونظراً للخوف منه، إنه لأمر خطير الأبحار على ظهر نهر النيل، وهذا الوحش كبير جداً، ولقد رأيت جلد تمساح، يمكن لثور أن يمر من خلاله بسهولة، ولقد أخبرني واحد من فرسان الداوية أنه حدث في إحدى المرات أن أمسك الداوية تمساحاً صغيراً، واقتلعوا أسنانه، وأنهم ربطوا إلى ذيله صخرة لا يستطيع عشرة رجال تحريكها، وقد قام بجرها لوحده إلى مبنى كان قيد الاعمار، ومع هذا تراه يُقتل من قبل حيوان صغير، يكرهه بشكل طبيعي، ويتبعه حيثما ذهب، ويقوم التمساح بابتلاعه مع الأطعمة الأخرى، وعندها يقوم هذا الحيوان بخرق قلب التمساح ويقتله، وهناك أيضاً حيوانات شريرة أخرى كثيرة في النيل.

٣٤ — حول بلاد مصر وأرضها

وأرض مصر غنية، ولطيفة، ومبهجة، ومليئة أكثر من البلدان الأخرى في العالم بالأشجار، والفواكه، والأعشاب، والمروج والمراعي، وطولها يساوي سفر خمسة عشر يوماً، وسفر ثلاثة أيام بالعرض، وهي — كما أخبرت — مثل جزيرة، محاطة بالصحراء من ثلاثة جوانب، ويجدها البحر الاغريقي من الجانب الرابع، وعرض الصحراء سفر سبعة أيام في أضيق الأماكن، ومصر بلاد حارة جداً، إلى حد أن الشتاء هناك نادراً ما يمكن تمييزه عن الصيف، والورود والأزهار الأخرى، لا تتوقف عن التفتح، أو نادراً ما تفعل ذلك، مع أنها لا تمطر هناك أبداً، ولدى سكانها عمودين من البرونز عليهما علامات، وقد وضعوا العمود الأول (المقس) بينهما، وأقاموه في وسط النيل، على مقربة من الفسطاط، ونصبوا الآخر في النيل على مقربة من الاسكندرية، وعندما ترتفع مياه النهر إلى مستوى تلمس فيه العلامات على العمودين، سوف لن يكون هناك خوف لمدة عامين مقبلين، ويقوم المصريون هناك بسوق مياه النيل

في ترع وأقنية وعمرات، ويدفعون المياه للجري حول أرضهم، وحقولهم، وغاباتهم، وبساتينهم، وحدائقهم، التي تزدهر وتحصل على الري في كل جوانبها، وعندما تتم سقاية الأرض على هذه الصورة خلال الليل، فإن القمح والأعشاب سوف تنمو أكثر من عرض كف عند الصباح، ويبقى المصريون في ذلك الوقت يراقبون المياه طوال الليل، ولا يغادرون حتى تتم سقاية الأرض.

ويبدأ هذا النهر كل سنة بالازدياد على هذه الصورة في شهر آب، ويزداد كل يوم حتى يوم عيد القديس ميخائيل، وبذلك يجعل من الأرض الأكثر قحطاً، أرضاً مليئة بالبهجة والخصب، وفي أثناء ازدياد مياه النيل يمسك الناس جميع أنواع الأشجار، والأعشاب، ويلتقطون الطيور الصغيرة في النهر، بوساطة شباك، وأكثر ما يجمعونه بشكل خاص خشب الصبر، وطيوراً صغيرة اسمها البط Ponoquets ، لكن من أين تأتي هذه الأخشاب، ما من إنسان عرف بشكل مطلق، ويبدو أن هذه أشجار قديمة قد يبست بسبب السن، وهي تسقط في الماء من الجبال، ويجمعون في ذلك الوقت من النيل خشب السنط أيضاً، الذي يمكن تقطيعه بسهولة مثل الأخشاب الأخرى، لكن لا يمكن حرقه، ويجري إمساك طيور البط الخضراء الصغيرة، مع الأغصان والأشجار التي تعيش عليها، وذلك حسبما قيل، ويقول بعضهم أنهم يلدون في جبال جلبوع، وهذا أمر غير صحيح، ويقولون أيضاً أنهم لا يتحملون الماء، وهذا أيضاً غير صحيح، لأنهم ينشأون فوق الجزر وفوق المياه، ولقد رأيتهم يسبحون فوق البحر، غير أنهم لا يستطيعون تحمل البرد، ولا الطيران أو السباحة لمدة طويلة، ويمتلك نهر النيل هذا جزءاً غنية فيه، مليئة بأنواع المزروعات والأشياء الجيدة الأخرى، وفي مصر أيضاً أعداد لا تحصى من الطيور، كما سمعتم من قبل، وهي التي تفقس في الأفران أو تحت أشعة الشمس، ومثل هذا يوجد في مصر

أعداد لا تحصى من الحجل، وذلك أكثر من جميع الطيور في هذه البلاد، لأنه يجلب في بعض الأحيان فلاح أكثر من عشرة آلاف طائر حجل معه إلى السوق، كلهم يطرون، وعندما يجلس الفلاح يتوقفون جميعاً معه، وعندما يقوم ويصفق بيديه يطرون جميعاً معه ثانية، وإذا ما أضع طائراً منهم في بعض الطرقات يصفر في مزماره، فيعود إليه على الفور، وعندما يأتي إلى سوق الدجاج في المدينة، يبيع منهم بقدر ما يستطيع، ويعيد الذين لم يستطع بيعهم معه إلى مقر سكنه، وهناك أعداد لا تحصى هائلة من الحمام التي يمكن أيضاً رؤيتها في مصر، ولا أعتقد أنه يوجد في أي مكان في العالم مثل ما هو موجود من الحمام بمصر وبقدره، ومن المحظور كلياً إمساك الطيور لأن السلطان مع الأمراء الآخرين يرسلون رسائلهم بوساطة الحمام الزاجل، فبذلك يتعرفون في وقت قصير على الأخبار والأسرار للبلدان البعيدة.

ويوجد في مصر أعداد لا تحصى من الغزلان، ومن الماعز، حتى إنه من الممكن رؤيتهم على الطرقات وفي الحدائق مثل الأغنام الأهلية، ومن الممكن إمساكهم وبيعهم من قبل من يمر بهم.

وفي مصر أيضاً، حتى هذه الأيام، كثير من البيع، والديرة، والكنائس، وصوامع النساك، وهي قائمة على حالها، غير أنها مهجورة، ومرسومة بشكل رائع، لكن رسومها قد شوهت بطرق كثيرة من قبل المسلمين، ومثل هذا ما يزال يقوم في الصحراء المصرية حتى هذه الأيام كثير من القلايات وصوامع النساك التي تعود إلى الآباء المقدسين، حيث تتوفر في بعض المناطق بكثرة إلى حد أنه انتشر في مساحة ميلين أو ثلاثة أميال (ألمانية) قلايات وصوامع نساك بين الواحدة والأخرى رمية سهم، وفي هذه الأيام كثير منها مسكون من قبل هنود، ونوبيين وسريان، يعيشون في ظل قانون القديس أنطوني مع القديس مكاربيوس، وقد صنع الرب في هذه الصحارى عدداً كبيراً من المعجزات على أيدي الآباء

المقدسین، ولاسییا فی مکان کان اسمه أخیم، وبشکل خاص علی ایدي القديس أنطوني مع القديس مکاریوس، وذلك حسبما جاء الخبر في «حياة الآباء»، ويوجد في هذه الصحراء مكان تحت صخرة طويلة جداً وضيقة، ففي هذا المكان اعتاد القديس أنطوني على السكنى، وينبع من تلك الصخرة هناك وتتدفق مياه جدول صغير لمسافة نصف رمية حجر، حيث تضيع المياه في الرمال، وحالها مثل مياه جارية في الثلج، ولا تشاهد بعد ذلك، ويزار هذا المكان من قبل كثيرين من أجل العبادة والمتعة، ثم إنه بفضل نعمة الرب وتشریفاً للقديس أنطوني يتم شفاء كثير من المرضى حيث يتخلصون من أمراضهم بمياه هذا النبع، ومن المعتقد أن هذه المياه تدفقت من الصخرة استجابة لصلواته، وهذا أمر حقاً صحيح، لأنه من الواضح أنها لا تتدفق أكثر مما فيه كفاية لإعطاء الماء لقلائته الصغيرة، وحديقته المتواضعة، وسوف يحتاج الأمر إلى وقت طويل للحديث عن بقية أمجاد مصر، وخصبها وجمالها، ويمكنني أن أضيف أن جميع الأغنام والماعز، وما شابه ذلك من الحيوانات يحملن في العام الواحد مرتين، ويلدن في غالب الأحيان توائم لدى كل ولادة.

ويوجد في مصر ثلاث مدن عظيمة جداً، قائمة على جانب النيل، الذي هو نهر الجنة، وهذه المدن هي: الفسطاط، والاسكندرية، ودمياط، ودمياط هذه هي المدينة التي كانت تعرف فيما مضى باسم راغس (وهم وتداخل) وفيما بعد باسم إديسا، والآن دمياط، وإلى هذه المدينة بعث توبيت أوف يور Tobit of Yore ابنه إلى جباعيل [الصحيح بعثه إلى الري قرب طهران]، ووقد في هذه المدينة فيما مضى القديس توما، ومن خلاله صنع الرب كثيراً من المعجزات في المكان نفسه، وكان في هذه المدينة الرسالة التي بعث بها يسوع إلى أبجر، ملك هذه المدينة، ولهذا السبب ما من مهرطق أو كافر استطاع أن يبقى طويلاً فيها، لكن فيما بعد، وبسبب ذنوب الناس، تدنست المدينة، وهكذا آلت في هذه

الأيام إلى لاشيء.

ونقلت المدينة في هذه الأيام بعيداً إلى داخل اليابسة وابتعدت عن النيل، ذلك أنه غالباً ما جرى انتزاعها من أيدي المسلمين، من قبل القديس لويس، ملك فرنسا، ومن قبل صليبيين آخرين، لكن القديس لويس أخذ أسيراً هناك، ولهذا السبب أعيدت المدينة إلى المسلمين، والآن عندما سمع المسلمون أن ما أحد يمكنه العيش في المدينة إلا المسيحيين، قاموا بنقل المدينة إلى مكان آخر، صدوراً عن كراهيتهم لهم، والمدينة في هذه الأيام مسكونة بشكل رئيسي من قبل صيادين، ويقدم عدد كبير من التجار إليها مع بضائعهم، ومع سفنهم، ويشترون كميات كبيرة من السمك، بأسعار زهيدة جداً، ويتولون شحن الأسماك إلى جميع أجزاء الدنيا، وهناك عجائب كثيرة أخرى حول هذه المدينة يمكن أن نقرأ عنها.

٣٥ - حول الصحراء وجبل سيناء

وفي عودة إلى موضوعي: إنه إذا ما سافر الانسان من القاهرة والفسطاط، يصل إلى سيناء في اثني عشر يوماً، ففي ستة أيام منها يعبر الانسان على طول الطريق الذي حدثتكم للتو عنه، والذي هو مليء بالناس، وحيث أن هناك أشياء كثيرة للمشاهدة، ثم يعبر الانسان خلال ستة أيام فوق الصحراء، وعليه أن يحمل معه جميع الأشياء التي إليها حاجة على الجمال وعلى حيوانات التحميل، والمراد بذلك: الخبز، والخمير، والماء، واللحم، والبقساط، والعنب، والزبيب، والتين، وماشابه ذلك، وفوق ذلك كله فراش للنوم عليه أثناء الليل.

وعليك أن تعرف أن الجمال، التي تعبر هذا الطريق في كل يوم، تعرف تماماً طول سفر اليوم، والمحطات والأماكن المناسبة للراحة، وعندما يصلون إلى هذه الأماكن في المساء يتمددون على الأرض

لا جترار الطعام ومضغه، ولا يسيرون مسافة أكثر، وبذلك كأنهم يقولون: هذا يوم حقيقي، وهذا مكان للتوقف، وبعد هذا يجري اطعامهم الخبز والأشواك، ومن السهل إطعام الجمل، ونادراً ما يشرب مرة واحدة كل ثلاثة أيام، لأنه إذا ما كان الماء متناسباً مع حجمهم، ما من انسان يستطيع أن يعبر الصحراء معهم.

وبعد عبورك للصحراء تأتي إلى البحر الأحمر، وعليك أن تعرف أن الصحراء ليست سوى ملح وأرض رملية، احترقت وجفت إلى أقصى غاية ممكنة بوساطة حرارة الشمس، ومن النادر أن تجد شيئاً أخضر فيها، وعلى كل حال ليست الصحراء كلها جرداء في جميع الأماكن سواء، وإنه لأمر مدهش وعجيب أنك تجد صخورها وجبالها مالحة جداً، ومع ذلك هناك ينابيع متفجرة فيها مياهها عذبة جداً، وهي ممتازة جداً للشرب، ويوجد الى جانب هذه الينابيع حشائش وأعشاب، وأشياء خضراء مماثلة، ويجد الانسان على مقربة منهم آثار أسود، وتينينات، وحيوانات مفترسة خطيرة أخرى، وهناك بشكل خاص أرانب برية، وعندما يعبر الانسان هذه الصحراء في ستة أيام، ويشاهد ما فيها من عجائب، يصل إلى البحر الأحمر، كما تقدم بنا القول، وذلك إذا كان قادماً من القسوط.

وفي البحر الأحمر أسماك رائعة بكميات كبيرة، ومياهه ليست حمراء بل الأرض، مع قعره هناك لهما لون أحمر، وتبدو المياه للناظر إليها حمراء، أي للمحديق نحو الأسفل، وذلك بسبب احمرار القعر، لكنها عن بعد لها اللون نفسه مثل المياه الأخرى، ومياهه نقية جداً وصافية، ولذلك من الممكن رؤية بنس مرمي على قعره من مسافة عشرين غلوة، هذا وإنه بسبب احمرار قعره وصفاء مائه، يبدو مثل أصفى نبيذ أحمر، ويجد الانسان فيه كثيراً من المرجان، وأيضاً كثيراً من الأحجار الكريمة والأشياء الأخرى، مرمية على شواطئه.

والبحر الأحمر قائم في العربية، وجميع أراضي العربية حمراء، ولهذا السبب فإن الأشياء الحمراء مهما كان نوعها تنشأ هناك فيها وكذلك تلد، وكل شيء هناك أحمر باستثناء الرجال فقط، ولهذا السبب فإن الذهب الخالص يعثر عليه هناك مثل جذور اسطوانية، فضلاً عن هذا يوجد في البحر الأحمر كثيراً من الجزر، فيها تنمو أشجار حمراء من مختلف الأنواع، وبشكل خاص، بين ما يعرف لدينا باسم الشجر البرازيلي Brazil.

والبحر الأحمر ليس بحراً كبيراً جداً، كما أنه ليس طويلاً ولا عريضاً، ولا يتجاوز عرضه في المكان الذي عبر منه بنو إسرائيل أربعة أميال أو خمسة، وفي البحر الأحمر هناك قلعة يمتلكها السلطان، فيها مسجون نبلاء أسرى الصليبيين، وفضلاً عن هذا تتولى هذه القلعة الحراسة وتبقى متيقظة، خشية أن يحاول انسان لاتيني، أو رجل من هذه الجهة من البحر، أو واحد ولد في هذه البلدان، العبور بوساطة البحر الأحمر إلى الهند، وذلك خوفاً من أن يجلبوا إلى الوطن أية أخبار عن قوة وأوضاع الشعب في مناطق ما وراء البحر، أو أخباراً عن برسترجون والهنود، أو حمل رسائل منهم، ذلك أنه سوف يكون سهلاً الإبحار إلى المحيط والهند من خلال البحر الأحمر، لو أن هذه القلعة لا تتقف في الطريق، لكن يمكن للتجار الهنود والتجار المشاركة عبور ذلك الطريق، كلما أرادوا، كما يفعلون غالباً، وعلى كل حال إنني أعرف أساقفة ونبلاء اعتادوا على الدوام على ارسال تقارير عن هذه المنطقة من الشرق، مع جميع أنواع الأخبار، عبر البحر الأحمر إلى برسترجون، ولقد اعتاد رجال هذه القلعة على صنع شباك من أوتار الجلود ورميها في البحر، ثم يدعون المرجان الذي ينمو في البحر، مثل النبات، يتعشش بين الأوتار، ويسحبونها كل نصف سنة وهي مليئة بما لا يحصى عدده من أفضل أنواع المرجان، وبذلك يحصلون على مراتب عظيمة، مقابل لاشيء

مطلقاً، فمن خلال هذا البحر الأحمر، تأتي تجارات ثمينة جداً، من الهند، وتنقل هذه التجارات من خلال فرع البحر، الذي ينطلق من البحر الأحمر، وينزل من خلال النيل إلى جميع أنحاء العالم.

وكما قلت من قبل، بالتجول حول شاطئ البحر الأحمر، يصل الانسان إلى المكان الذي عبر منه بنو اسرائيل البحر، وكان ذلك لدى مطاردة المصريين لهم، وفي أثناء هذه الرحلة يجد الانسان أشياء نادرة من مختلف الأنواع على الشاطئ، وهكذا بعد ترك عدد من الجبال في الخلف، يصل الانسان إلى بئرماره [الخروج: ٢٣ / ١٥] حيث كان الماء مالحاً، وكان ذلك عندما عبر بنو اسرائيل بذلك الطريق، وعندما ألقوا في ذلك الماء غصن شجرة، غدا بأمر من الله عذباً، وبعد مغادرة ماره، المرور بمناطق مختلفة، وبعد رؤية كثير من الجبال وتوديعها، يصل الانسان إلى إيليم [الخروج: ٢٧ / ١٥]، فهناك عندما عبر بنو اسرائيل ذلك الطريق وجدوا هناك سبعين نخلة، واثنى عشر بئراً، وهذا المكان خصب جداً، وفائق الجمال، ويجد الانسان هناك كثيراً من قلايات الآباء المقدسين وصوامع النساك التي كانت فيما مضى قائمة على مقربة من ذلك الموضع، وبعد مغادرة إيليم يصل الانسان إلى قفارسين، وإلى جبل سيناء، وقد بني عند سفح هذا الجبل دير واسع جداً وجميل، وكان ذلك في المكان الذي رأى موسى فيه الشجرة المحترقة (العليقة)، التي لم تستهلكها النار، وقد تكلم الرب إليه من خلال العليقة، والدير مسقوف بالرصاص، ومسيح بأبواب حديدية، ومحصن بشكل جيد من كل جانب، وفيه أكثر من أربعمئة راهب: إغريقي، وجورجي، وعربي، من كل من رجال الكهنوت والعلمانيين، وهم لا يقيمون بشكل دائم في الدير، بل تراهم منتشرين في الخارج هنا وهناك، يعملون في مصالح الدير، وبالتعب الكبير، يحصلون على ما هو محتاج لأنفسهم وللحجاج، حيث يقومون بشكل مستقيم وتقوى بتوزيع الشيء نفسه على الحجاج،

وهم يعيشون بتقوى عظيمة، وبانتظام شديد، مع حياة متقشفة، ويقدمون الطاعة بتواضع إلى أسقفهم وكهنتهم، ويعيشون بقداسة وتواضع في كل شيء، وهم نادراً ما يشربون الخمر، إلا في أيام أعياد خاصة، ولا يأكلون اللحوم أبداً، بل يعيشون على «السلطة»، والخضروات، والحبوب، والتمور، وماشابه ذلك، مع الماء، والحل، والملح، ويأكلون من مائدة واحدة، من دون منضدة وأثاث، ويحتفلون بالقداسات الإلهية بكل تقوى، صباحاً ومساءً، وذلك تبعاً لطقوسهم، وهم يتبعون في كل شيء قانون القديس أنطوني، ويعمل الرهبان العلمانيون بنشاط عظيم، حيث يحرقون الحطب لتحضير الفحم على رؤوس الجبال، ويجلبون التمور بكميات كبيرة من إيليم، ويحملونها على ظهور الجمال وحيوانات التحميل إلى الفسطاط، حيث يتولون بيعها، ويحصلون من هناك على مساعدات كبيرة وهدايا حضرت من أجلهم، من قبل المسيحيين والتجار الذين يسكنون هناك، وبدون هذا لا يستطيع كثير من الناس العيش في مكان صحراوي، ولا يستطيعون الانفاق على الضيافة المكلفة التي يقدمونها بدون مقابل وبكرم عظيم وبلطف ويعطونها إلى الحجاج، وهم يجلبون التمور من إيليم والفحم من الجبال، أي من مسافة تزيد على سفر أكثر من اثني عشر يوماً، ويتولون بيع ذلك كما أخبرتكم.

ويقوم في هذا الدير كنيسة فائقة الجمال، يحافظون عليها وبيقونها نظيفة من الداخل، وهي تضاء بمصابيح وبوسائل إضاءة متنوعة، ويقدمون تبجيلاً خاصاً للمكان حيث يقوم المذبح العالي، وهم يخلعون أحذيتهم قبل دخولهم إلى هذا المكان، ويجعلون كل واحد من الحجاج الذين يرغبون بالدخول إليها يخلع حذاءه مثلما يفعلون، لأن المكان الذي يقوم فيه المذبح العالي الآن، قامت عليه فيما مضى العليقة، التي كلم الرب من خلالها موسى وقال له: «اخلع حذاءك من رجلك. لأن

الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة» [الخروج: ٣ / ٥].

وفي هذه الكنيسة، وعلى جهة اليمين للمذبح العالي، إنما في أعلى مكان، يقوم نوع من أنواع الصناديق من الرخام الأبيض، موضوع فيه، ومغلق على رأس وعظام العذراء المجيدة كاترين التي هي مختلطة فيما بينها بشكل فوضوي، وكانت هذه العظام قد نقلت من قمة جبل سيناء، ويجري عرض هذا الرأس والعظام بشكل مهيب جداً من قبل رئيس أساقفة الدير وكهنته، مع مباحر، وشموع، ومساعدتي كهنة، وفي هذه الأوقات يطلب الأدلاء المسلمون، وسائقو الجمال، وساسة الخيول الذين يأتون مع الحجاج، ويلتمسون باخلاص أن يسمح لهم أيضاً برؤية هذه العظام المقدسة العجيبة، ويركعون بتقوى عظيمة جداً إلى جانب المسيحيين، ولدى عرض هذه العظام على الحجاج، إذا كان هناك أسقف أو كاهن كبير بين الحجاج، عندما يقوم رئيس الأساقفة أو رئيس الكهنة في الدير، بتناول واحداً من العظام المقدسة بيده، يحكها بشدة بوساطة أداة فضية شكلها مثل شكل عصا، حيث يتدفق بسبب ذلك زيت من المسام مثل العطر، وقد اتخذ في إحدى زوايا الصندوق التي حفظت فيه العظام فجوة فيها يتجمع جميع الزيت الذي يسيل من هذه العظام ويتدفق، ليجمع هناك، وهناك في هذه الفجوة ملعقة فضية، يأخذها بيده الكاهن الذي يتولى عرض العظام، ويملاً قارورة زجاجية صغيرة بالزيت، ويعطي كل واحد من الحجاج قارورة صغيرة فيها زيت.

فضلاً عن هذا، في هذا الدير، هناك آثار مقدسة أخرى كثيرة، ومع ذلك فإن رهبان الدير لا يمكنهم الإقامة هناك، إلاّ بنعمة خاصة من الرب، وغيابهم هو لأسباب كثيرة غير ناشئة عن إثارة الشيطان، ولهذا السبب لا توجد غيرة أو فوضى بينهم، بل تجدهم يؤثرون كل من يراهم، وعلاقاتهم جيدة معهم، وكذلك علاقاتهم مع المسلمين، فهي لا تختلف عن علاقاتهم مع المسيحيين، وبشكل خاص مع السلطان،

الذي يمنحهم كثيراً من الصدقات والمساعدات، وعلى هذا لم يتعرضوا أثناء عملهم أو تجوالهم في الصحراء للأذى من قبل أية مخاطر، أو حيوانات مفترسة، كما أنهم لا ينزعجون ولا يمرضون لا في الصيف ولا في الشتاء، من قبل المناخ غير المتوقع، أو بحرارة الشمس المرتفعة جداً، وأعتقد أنهم حصلوا أيضاً على نعمة خاصة من الرب، بوساطتها لم تدخل المخلوقات القذرة قط داخل جدران الدير، وأعني بهذه الحيوانات أمثال: الذباب، والزناير، والدبابير، والقمل، وماشابه ذلك، فهذه لا يمكنها العيش هناك.

وأخبرني راهب من ذلك الدير، كان ذا تعليم نادر، أنه حدث في يوم من الأيام، بإثارة من الشيطان، وبإذن سماوي، أن هذه المخلوقات أذتهم كثيراً، وبقدر ما تستطيع، وعانوا كثيراً جداً من العذاب المضي والأذى الصادر عن هذه المخلوت غير النظيفة من هذه الانواع، إلى حد أنهم فكروا بترك المكان، إنما تشجعوا برأي مقدس لواحد من الرهبان، وصلوا إلى الرب أن يقوم برحمته بطرد وإزالة جميع أمثال هذه المخلوقات وابعادها عنهم، وتمت الاستجابة مباشرة لهذه الصلوات، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، لم يلاحظوا وجود مثل هذه المخلوقات أو أي منها مهما كان داخل أسوار الدير، هذا وفي الوقت نفسه تراهم خارج الأسوار يسببون أذى عظيماً لكل من البشر والحيوانات، فضلاً عن هذا لقد تبرهن مراراً، أن مثل هذه المخلوقات غير النظيفة عندما تحمل حية إلى داخل الأسوار تموت فوراً.

وحصل الرهبان على هذه الامتيازات جميعاً بوساطة حياتهم المقدسة والمستقيمة، لأنهم لا ينجدمون الحجاج من أجل المال أو طمعاً في شيء، بل إنهم يقدمون الخدمات لكل من يأتي إلى هناك، طوال المدة التي يقيمها مهما كانت، وسواء أكان الزوار أغنياء أم فقراء، عالين أو منخفضين، يعطيهم الرهبان جميعاً كل ما يملكونه أنفسهم، بكل بساطة ولطف،

وذلك باسم الرب، وإذا ما حاول أحد الناس منحهم أو إعطاءهم، أو أي واحد منهم، أية هدية، يرفضون جميعاً، ويردونها، وإذا ما أخذها أي واحد منهم، سوف يتعرض إلى عقوبة شديدة، ومثل هذا أيضاً عندما يأخذ الحجاج بمغادرتهم، يقدمون لكل واحد منهم، بكل لطف ومن دون أي مقابل، أرغفة من الخبز، وبعض الحبوب، وما شابه ذلك، وفقاً لأفضل ما يقدرون، ويكون ذلك بقدر ما يكفي أحدهم كل يوم من أيام سفره، وذلك حتى يصل إلى الأماكن المأهولة بالناس، ويقدمون هذا لكل الناس سواء إلى الغني وإلى الفقير، وإلى العالي والوضيع.

ويحتفل هؤلاء الرهبان بعيد البابا القديس غريغوري، ويولونه عناية فائقة خاصة، ويهتمون به أكثر من الأعياد الأخرى، لأنه في الوقت الذي كان فيه رأساً للكنيسة دعمهم بالهبات من خزانة الكنيسة، وشجعهم على السكنى هناك، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، بقيوا وعددهم أربعائة، علماً أنهم كانوا قبل ذلك قليلاً عددهم.

ويطل فوق هذا الدير، ويشرف عليه جبل سيناء، الذي يصعد الانسان إلى قمته بوساطة عدد كبير من الدرجات، وبعد تعب شديد لا يمكن للكلمات أن تعبر عنه، وتقوم فوق قمة هذا الجبل كنيسة، فوق البقعة، التي قال فيها الرب لإيليا النبي: «لماذا أنت هنا يا إيليا؟» وذلك حسباً قرأنا في سفر الملوك، وعلى مقربة من هذه الكنيسة، هناك بيعة صغيرة، في المكان الذي أعطى الرب فيه الشريعة إلى موسى، وتجلّى مجد الرب عليه، وما يزال يشاهد في هذا المكان فجوة في الصخرة الصماء، فيها محفور صورة موسى كختم، ففي هذه الفجوة مدّ الرب يده اليمنى فوق موسى عندما مرّ من أمام جلالته، وجعل موسى يرى أطرافه المعاقة، لأن موسى لم يكن بإمكانه تحمل رؤية وجهه السامي.

وحدث أنه إلى قمة جبل آخر أعلى من هذا الجبل، إلى جانب وادٍ عميق، في المكان نفسه، تمّ حمل جسد العذراء الرائعة كاترين من قبل

الملائكة من الاسكندرية، وبشكل إعجازي جرى اكتشافه من قبل النساك الذين سكنوا هناك، وهذا الجبل من أكثر الجبال اتعاباً في تسلقه، هذا ولا يوجد على قمته بيعة، أو صومعة، أو مكان استقرار، وأعتقد أن سبب هذا أن تسلقه مرهق إلى حد أنه ما من أيدي بشرية يمكنها أن تبني أي شيء هناك، لكن من الممكن رؤية المكان الذي عثر فيه على جسد القديسة كاترين، حيث هناك علامات كتفي إنسان فوق الصخرة، وهذا المكان معلم بوساطة حجارة، وصنع الرب فوق هذا الجبل كثيراً من المعجزات، يحتاج الحديث عنها جميعاً إلى وقت طويل.

وعليك أن تعلم أن جبل سيناء متفوق في ارتفاعه على جميع الجبال في تلك المناطق، وكما قلت يتسلقه الانسان بعد جهد كبير جداً، أكثر من أن يستطيع أي لسان أن يصفه، ذلك أن على المتسلق له صعود عدد كبير من الدرجات الضيقة جداً والمحفورة في الصخر، وهذا الجبل يفقد اسم سيناء باتجاه مصر، ويصبح اسمه حوريب، ومن قمة هذا الجبل، من الممكن رؤية جميع المناطق من حوله، ويمكن بسهولة مشاهدتها، وفي هذا الارتفاع الشديد يتأثر الانسان كثيراً بالهواء، ومن هناك يمكن للانسان أن يتفحص بدقة البحر الأحمر، وإيليم، وهو المكان الذي أمطرت السماء فيه مناً على بني إسرائيل، كما يمكنه مشاهدة جميع المناطق الأخرى في الجوار، ويوجد عند سفح الجبل سهل جميل، فوقه اعتاد موسى على رعاية قطيع ختنه يثرو Jethro (شعيب) وهناك رأى العليقة، وحدث فوق هذا السهل أن قاتل أيضاً إسرائيل ضد عماليق (الخروج: ١٧) في حين كان موسى يدعو بذراعين مرفوعين، ويشوع (هرون) وحور، قد وقفا ممسكين ليديه حتى تبقياً مرتفعتين، ومثل هذا حدث فوق هذا السهل أن صنع بنو إسرائيل لأنفسهم عجلاً مصهوراً، عنه حدثنا الكتاب المقدس، وفوق هذا السهل أيضاً أكلت النار ناداب، وأيهو (لاويون: ١٠ / ١)، وكذلك من الممكن رؤية أماكن

أخرى كثيرة، ورد ذكرها في الكتابات المقدسة.

٣٦ — حول فيافي سيناء

ويسافر الانسان من جبل سيناء نحو سورية، عبر الفيافي، خلال ثلاثة عشر يوماً، حيث يأخذ معه بعض الميرة الخاصة به، وذلك مع ما يعطى له من الدير، وهذه الفيافي سيئة جداً وخطيرة، وهي قائمة في العربية، وتدعى هذه البلاد سواء أكانت مسكونة أو مهجورة باسم العربية، وفي هذه الفيافي هناك ندرة عظيمة وشح بالمياه، ويقطن هناك أعداد لا تحصى من الناس هم مثل الحيوانات المتوحشة، وهم يعرفون باسم البدو، ويتجولون هناك على شكل جماعات مكونة من مئات أو آلاف مع بعضهم، وهم يسكنون في خيام مصنوعة من اللباد أو الجلود، وهم يتجولون هنا وهناك إلى الأمام وإلى الخلف حول القفار مع قطعانهم وحيوانات التحميل، حيث ترعى مواشيتهم في أية أماكن يمكنهم أن يجدوا فيها ماء، مع أنها مياه قليلة في آبار وفي مجاري، وهم يعيشون على حليب نوقهم ومواشيتهم، وهم لا يأكلون الخبز، ما لم يصدف ويعطيهم بعض الحجاج بعضاً منه، أو ما لم يجلب إليهم من سفر أكثر من اثني عشر يوماً، ذلك أنهم لا يبذرون ولا يحصدون، بل يعيشون مثل الحيوانات غير الأليفة، وجوههم مرعبة أن تنظر إليها، حيث هي سوداء وملتحية، وهم شجعان جداً وسريعون، ويمكنهم أن يذهبوا على ظهور جمالهم (وحيدة السنام) إلى أي مكان بعيد يرغبون بالوصول إليه في يوم واحد، حيث ينشدون الأماكن التي من الممكن توفر المياه فيها، وهم يلفون قطعة طويلة جداً من القماش حول رؤوسهم، وذلك بسبب حرارة الشمس التي لا تحتمل، وهم يستخدمون القسي والنشاب، وفي هذه القفار من النادر وجود المياه خلال رحلة يومين أو ثلاثة كاملة، وقد يعثر عليها في مكان في اليوم الأول غير أنها ستجف في اليوم الثاني، فضلاً عن هذا، في هذه القفار، تجد لساعة من

الزمان أماكن كلها منبسطة، وفي ساعة ثانية، تجد أكواماً من الرمل مرعبة قد تجمعت، أولاً في مكان، ثم في مكان آخر، ولا تستمر بالاستقرار في مكان واحد، وبناء عليه فإن الطريق عبر القفار لا يمكن مطلقاً معرفته، إلاً بوساطة الجبال، ومن قبل البداية، الذين يعرفون ويفهمون الطرقات في القفار مثلما يعرف الناس الطريق حول بيوتهم.

ولا يهتم هؤلاء مطلقاً بالسلطان، ولا يقدمون إليه أية طاعة مهما كان نوعها، لكن السلطان يحاول إغراءهم واسكاتهم بالهدايا حتى وإن كانوا يسكنون بعيداً عنه، ذلك أنهم لو اختاروا لأمكنهم بسهولة عظيمة جداً أن يستولوا على مملكة السلطان ويخربونها.

وعبرت العذراء مريم هذه الفيافي مع الطفل يسوع عندما هربت من اليهودية من وجه هيرود، وينمو على طول الطريق المعتقد أنها مرت به ورود جافة، يطلق عليها في هذه المناطق اسم ورود أريحا، ويجمع البدو هذه الورد من القفار، ويبيعونها إلى الحجاج مقابل الخبز، فضلاً عن هذا، النساء المسلمات يكن مسرورات كثيراً، بأن تكون هذه الورد إلى جانبهن، وذلك عندما يكن في أوقات الولادة، فوقتها يشربن من الماء الذي جرى صبه فوق الورد، وقد أعلن أن ذلك مفيد جداً، وثمان أثناء الحمل.

وفي هذه القفار هناك مخاوف أخرى كثيرة، سوف تحتاج وقتاً طويلاً لحكايتها، وهي صادرة عن الرياح، والرمال، والرجال المتوحشين، والأفاعي، والأسود، والثنينات، والهوام السامة الأخرى والحيوانات المفترسة.

وبعدما يعبر الانسان هذه القفار، الممتدة نحو الجنوب، يصل إلى بداية أرض الميعاد وذلك إلى مدينة كانت فيما مضى جميلة لكنها الآن مهجورة، اسمها بير السبع، ويبدو أن هذه المدينة كانت فيما مضى مزينة

بكثير من الكنائس الجميلة، حيث ماتزال بقايا بعضها قائمة حتى هذا اليوم.

٣٧ - حبرون - وادي ممرا - وبيت لحم

وإذا ما انطلق الانسان من بير السبع في منتصف النهار، يصل إلى مدينة جميلة وقديمة، ماتزال مأهولة بشكل لا بأس به، اسمها حبرون، وتقوم على جانب رابية قريبة من هذه المدينة، كنيسة جميلة، يوجد في داخلها الكهف المزدوج، حيث دفن فيه البطاركة الثلاثة: إبراهيم، واسحق ويعقوب، مع زوجاتهم، وهذه الكنيسة تعد مقدسة بشكل خاص لدى المسلمين، وهم لا يسمحون لأي مسيحي بالدخول إليها، إنما يجعلونهم يصلون عند الباب، ويسمحون لليهود بالدخول حيث كانوا يدفعون في أيامي المال ليفعلوا ذلك، وعلى كل حال من الممكن رؤية هذه الكنيسة من قبل المسيحيين من كل من الداخل والخارج، وهي من داخلها مدهونة بالأبيض، ومزينة بشكل جيد بالحجارة، وينزل الانسان نحو الأسفل وكأنه في قبو، إلى الكهف، حيث قد جرى دفن البطاركة وزوجاتهم.

وعلى مقربة من حبرون يوجد الحقل، الذي صنع آدم من ترابه، وكلما ازداد حفر هذه الأرض ونقل التربة منها، كلما امتلأ مجدداً من قبل نفسه، وتحمل التربة إلى بلدان نائية، ويقول بعضهم إنها تباع، غير أنني لأعرف شيئاً مؤكداً حول هذا الموضوع.

وعلى مقربة من حبرون أيضاً، يوجد وادي ممرا، حيث جلس إبراهيم عند باب خيمته ورأى ثلاثة، وعبد واحداً.

وكان في حبرون ثلاثة مرتدين من أسقفية Minden حسبما قيل، وكان اثنان منهم من السادة وكان الثالث خادمهما، ويحمل أولهما الماء على كتفيه ويبيعه في الشارع كما هي العادة في تلك المناطق، ويعمل الثاني

بيديه ليحصل على عيشه حسب أفضل ما يستطيع، وأما الثالث، الذي كان خادمهما فصار جندياً، لأنه اعتقد أنه أفضل مظهراً للانسان من كل الجوانب أن يكون تابعاً لواحد من ضباط السلطان، وعندما سئلوا لماذا تخلوا عن إيمانهم، أجابوا بأنهم أملوا بأن يحصل سيدهم على الثروة والمكانة، لكنه خيب ظنهم، وأعلنوا، وهم يتنهدون حزناً، بأنهم يودون لو يخطفون من هذه البلاد إذا كان ذلك ممكناً، لأنهم كانوا يعيشون حياة بائسة جداً، ولم يمتلكوا الجرأة على الاخبار والكشف من هم كانوا من قبل، وكان هؤلاء الرجال الثلاثة أصدقاء مقربين كثيراً من فارس من هذه المناطق (بلاد المؤلف) اسمه وليم بولنزييل Bolensele (كذا) كان مقيماً في بلاد ماوراء البحر قبل أيامي، وكان محترماً بشكل كبير هناك من قبل السلطان، وقد سمعت بأنه مات في كولون Coolgne (١).

وإذا ما سافر الانسان من حبرون، يمكنه أن يصل بسهولة خلال يوم واحد إلى بيت لحم، وقام فيما مضى على طريق سفر اليوم الواحد هذا دير الراعي القديس كريوث Karioth الذي عندما حلت ساعة وفاته، ورأى رهبانه أنه في آلام الموت قالوا: «بعد وفاة راعينا القديس كريوث، لن نعيش أبداً على هذه الأرض»، وفي تلك اللحظة بالذات دخلوا جميعاً في تباريح آلام ساعة الموت الأخيرة وماتوا، وبقوا لوقت طويل دون أن تفسد أجسادهم وظلوا واقفين وكأنهم في ساعة آلام لفظ أنفاسهم، هذا ولم يستطع المسلمون تدميرهم، ولقد حاولوا ذلك مراراً، لكن الدير زال، ولم يبق أدنى أثر منهم.

وبيت لحم جميلة جداً، وهي قرية ممتعة، وهي ليست طويلة، قائمة

١- كان وليم لون بولنزييل Boldinsel قد نزل في صور سنة ١٣٣٢، وكان في القدس في الخامس من أيار سنة ١٣٣٣، وقد كتب

كتابه في ربيع سنة ١٣٣٦، وهناك رسالة كتبها في أفينون يوم عيد القديس ميكايل سنة ١٣٣٧، وقد تحدث في هذه الرسالة عن نيته بالقدوم إلى

كولون.

فوق شعب جبلي، ومسكونة من قبل المسيحيين فقط تقريباً، وهي مسيجة: بمراعي، ومزروعات وأعشاب، وهي بالحري مسيجة بشكل جيد بوديان من حولها، وهناك اعتاد ملوك القدس والصليبيون على حشد جيوشهم مع بعضها، ولدى سكانها كميات وافرة من الخمرة والأشياء الأخرى الجيدة، ويقوم في بيت لحم كنيسة عظيمة وجميلة جداً، ومحصنة بشكل رائع بكثير من الأبراج، وأعمال خارجية، حتى كأنها قلعة، وهي مسقوفة بالرصاص، ومزينة بأعمال الفسيفساء، وأحجار اليشب، والرخام، والذهب، وكما أعتقد هي متفوقة بزيتها على كل كنيسة موجودة تحت الشمس، فهي قد بنيت من كل جانب بشكل ثري، وجليل، وملكي، وذلك حسبما تستحق، وهي تمتلك حوالي سبعين عموداً من الرخام النفيس، وهي ليست مقنطرة، بل مسقوفة تحت الرصاص، بأفضل أنواع الخشب، وجذوع وعوارض من خشب الأرز، وجدران الكنيسة مذهبة تحت الزجاج، وقد عملت بشكل رائع بزجاج مرسوم.

وأراد المسلمون قبل أيامي أخذ بعض الأعمدة، لكنهم ارتعبوا كثيراً، برؤيا، جعلتهم يتوقفون ولم يحاولوا قط منذ ذلك الحين أخذهم، وأمام السدة في هذه الكنيسة ينزل الانسان بضع درجات إلى كهف حجري، ليس مبنياً بل هو طبيعي، حيث فيه تحت المذبح العالي، يوجد المكان الذي صنع فيه الرب من أجلنا إنساناً، من أم عذراء، ويقوم فوق الموضع نفسه هناك مذبح، وليس بعيداً عن المذبح يقوم الملعف، الذي مددت فيه مريم العذراء المباركة الطفل يسوع، وهو ملفوف بأثمال بالية، وكان المشهد أن الرب نفسه وإنسان، يبكيان بحكم الضعف الإنساني، مثلما اعتاد الأطفال على البكاء، وإلى جانب الملعف مازال من الممكن رؤية قطع حديدية مثبتة في الرخام بوساطة الرصاص، حيث كان فيها حلقات حديدية، بها اعتاد رجال الريف على ربط حيوانات التحميل

العائدة إليهم مع المواشي، عندما يقدمون إلى السوق.

والمعلف مصنوع من الحجارة، وطوله حوالي أربعة أشبار، وفي ليلة الميلاد تجتمع هناك جميع الأمم الموجودة تحت قبة السماء، كما ينبغي بشكل صحيح جداً، ولكل أمة مكان محدد في هذه الكنيسة معزول لها ومخصص بشكل دائم، لتقييم فيه قداساتها، وفقاً لطقوسها الخاصة بها، ويمتلك اللاتين الآن الموضوع الذي عمل فيه الرب إنساناً، ومثل هذا لكل أمة قائمة بذاتها، مكان قائم بذاته لها، وفي أيامي لم يكن النوبيون قد امتلكوا مكاناً خاصاً بهم، ويقوم قبل هذه الكنيسة الدير الذي سكن فيه القديس جيروم، والقديسة باولا، والقديس يوستوخيوم - Eus-tochium، وكثير من القديسين الآخرين، وبفضل نعمة الرب صنعت هناك الكثير من المعجزات.

ويسكن الآن مسلم فوق ذلك الموضوع، ويتلقى بنساً بندقياً واحداً من أي واحد يريد أن يدخل إلى الكنيسة.

ويوجد أيضاً في بيت لحم بيعة تحت الصخرة، من الواضح أنها تمتلك بايين، ولهذا يستطيع الانسان أن يعبر مباشرة إليها، لكن الآن جرى إغلاق أحد الأبواب وسدّ بالبناء، ففي هذا الموضوع والحفرة، التي هي الآن بيعة، اختبأت العذراء المباركة لمدة ثلاثة أيام خوفاً من هيرود، وأبقت الطفل يسوع مخفياً هناك، وحدث أنها أثناء خوفها أن تقاطر بعض الحليب منها على الصخرة في ذلك المكان، وهذا الحليب ما يزال موجوداً هناك حتى هذا اليوم، وقد ترشح الحليب من خارج الحجر مثل شيء رطب، فاللون حليبي مع شيء من اللون الأحمر، وكلما مسح المزيد من الحليب وأزيل، كلما عاد بالكمية نفسها، وليس أكثر، وهذا هو الحليب الذي من الممكن رؤيته، وهو معروض للمشاهدة في كثير من الكنائس المختلفة، لأنه يحمل إلى هنا وهناك من قبل الحجاج.

ويوجد أيضاً على مقربة من بيت لحم كهف كبير في الصخر، فيه جرى إلقاء عدد كبير من أجساد الأبرياء، وقد جرى حمل هذه الصخرة كلها تقريباً، ونقلها من قبل الحجاج، فضلاً عن هذا على بعد ميل واحد من بيت لحم، يوجد المكان الذي اعتاد القديس جيروم بشكل خاص على السكنى فيه، وهناك قام بترجمة عدد كبير من الكتب من العبرية، والكلدانية، واللاغريقية إلى اللاتينية، وعلى مقربة من بيت لحم أيضاً، أي على بعد نصف ميل باتجاه سدوم وعموره، يوجد الموضع الذي بشر فيه الملائكة الرعيان بأن الرب قد ولد على شكل إنسان، وقد جرى في هذا المكان بناء كنيسة مزدوجة وفائقة الجمال، اسمها «المجد في الأعالي»، وهو ما أنشده الملائكة هناك، ولهذا السبب تبدأ أيضاً جميع ساعات قداساتها اليومية بـ «المجد في الأعالي»، تماماً مثلما نفعل بقولنا «المجد للرب في الأعالي»، وهم يفتتحون جميع القداسات، حتى القداسات من أجل أرواح الموتى بـ «المجد للرب في الأعالي»، وذلك بطريقة خاصة، حسبما رأيت مراراً في كتاب قداساتهم.

وهذه هي مدينة بيت لحم، المدينة الأسمى عند الرب، حيث ولد فيها داوود، وهي أيضاً كما قال عنها النبي ميخا: «وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا» [ميخا: ٥/٢ - متى: ٢/٦]، لأن بيت لحم قائمة في وسط يهوذا، ولهذا السبب أطلق على جميع تلك المنطقة اسم اليهودية، ذلك أن البلاد التي عرفت من قبل باسم اليهودية اسمها الآن سورية، واسم سكانها السريان.

ويذهب الانسان من بيت لحم إلى القدس بوساطة طريق، يوجد على يساره قبر راحيل زوجة يعقوب، وهو المكان الذي حملت فيه بابنها بنيامين، وقد توفيت أثناء الولادة، وعلى مقربة من هذا الطريق الكنيسة المشار إليها من قبل، أي كنيسة «المجد في الأعالي»، وكان أيضاً إلى جانب هذا الطريق، وما يزال موجوداً، عدد كبير جداً من من صوامع

القديسين، والكنائس والكهوف، والديرة، والقبور، العائدة للمسيحيين، وصنع الرب هنا كثيراً من المعجزات من خلال هؤلاء القديسين، وما يزال هناك حتى هذا اليوم عدداً كبيراً جداً من أجساد القديسين غير البالية، الرب وحده يعرف أسماءهم، وهم موجودون في أماكن متنوعة في الكهوف والأقبية.

وأيضاً على مقربة من هذا الطريق يوجد المكان الذي كان فيه البئر الذي ألقى فيه يوسف من قبل أخوته، ومن ثم بيع إلى الاسماعيليين، وبعد رؤية هذه المشاهد الكثيرة كلها مع المشاهد الأخرى، يصل الانسان إلى القدس، والمسافة فيما بين المكانين هي فقط ثلاثة أميال قصيرة من أميال تلك البلاد.

٣٨ — مدينة القدس المقدسة

القدس، المدينة المقدسة، التي فيها جرى صنع خلاصنا، وهي قائمة على جبل في وسط هواء صحي، وهي محصنة بشكل جيد، من جهة الشمال: بوساطة أسوار، وأبراج وتحصينات خارجية أخرى، ومن جهة الشرق بوساطة وادي شعفاط، ومن جهة الجنوب والغرب بوساطة وديان أخرى عميقة، وهي تفتقر إلى الماء في داخل أسوارها، وبركها مملوءة بالماء المجلوب من حبرون بوساطة مجاري تسير من تحت الأرض مع أقبية، من الممكن رؤيتها على طرف ذلك الطريق، عندما يسافر الانسان عليه، وهذه المدينة المجيدة ليست فائقة الطول ولا فائقة العرض، وهي ليست كبيرة جداً، كما أنها ليست صغيرة جداً، وهي مبنية بشكل مناسب إلى حد ما، وقد انتقلت بعض الشيء إلى شرق ما كانت قائمة عليه أيام صلب المسيح، وقد أعيدت عمارتها من قبل أليوس هدريانوس، وذلك بعدما هدمت من قبل تيتوس وفاسبسيان وتمت إعادة العمارة لإظهار التشريف لموضع الجمجمة.

ويقوم في القدس هيكل الرب، وهيكل سليمان، ويحتل هذان الهيكلان شطراً كبيراً من المدينة، ولا يسمح المسلمون للمسيحيين بالدخول إلى هذا الهيكل، وإذا ما دخلوا عليهم إما مواجهة الموت، أو التخلي عن عقيدتهم، وحدث هذا في أيامي، لأن بعض الاغريق دخلوا إليه، وداسوا على كتب المسلمين، وبما أنهم رفضوا التخلي عن عقيدتهم شطروا إلى قسمين.

وهيكل الرب مستدير، وقد بني وفق النمط الاغريقي، فهو مرتفع جداً، وواسع ومسقوف بالرصاص، ومعمول من حجارة كبيرة منحوتة ومصقولة، ووضع المسلمون فوق ذروته - وفقاً لطرائقهم - هلال قمري، ولهذا الهيكل أربع ساحات كبيرة، هي ليست مسقوفة، لكنها مبلطة بشكل جيد، ومزينة برخام أبيض.

وعلى مقربة من هذا الهيكل، من جهة اليمين، هناك كنيسة مستطيلة، ذات سقف رصاصي، اسمها رواق سليمان، ويقدم المسلمون احتراماً عظيماً لهيكل الرب، ويحفظونه نظيفاً جداً في الداخل والخارج، وهم جميعاً عندما يدخلونه يخلعون أحذيتهم، ويسمون الصخرة المقدسة، ولا يسمونه الهيكل، ولهذا يقول أحدهم للآخر: «دعونا نذهب إلى الصخرة المقدسة»، ولا يقولون: «دعونا نذهب إلى الهيكل»، ويسمون الهيكل: «الصخرة المقدسة» بسبب وجود صخرة صغيرة في وسط الهيكل، وهي مطوقة بحاجز حديدي، ولقد سمعت أنه قد قيل صدقاً من قبل مرتدين مسلمين أنه ليس من المفترض بأن يلمس أي مسلم الصخرة، وأن المسلمين يرتحلون من بلدان نائية لزيارة الصخرة بكل تقوى، وفي الحقيقة تلتف الرب بإظهار الاحترام لهذه الصخرة بمختلف السبل، وصنع كثيراً من المعجزات هناك فوقها، وهذا ما يشهد عليه الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، وأول جميع الأمور، وقبل كل شيء، قدم مليكصادق على هذه الصخرة قرباناً من الخبز والنيذ،

وكان مليكصاقد هو أول الكهنة، وفوق هذه الصخرة نام يعقوب، ورأى مجد الرب، وسلمياً واقفاً فوق هذه الصخرة، حيث وصل رأسه إلى السماء، وكان ملائكة الرب يصعدون عليه وينزلون سواء، وفوق هذه الصخرة أيضاً رأى داوود الملاك واقفاً، وسيف يقطر دماً بيده، وكان مرتاحاً من قتل الناس، ومن المعتقد أنه في داخل هذه الصخرة اعتاد الكهنة على رمي قرابين الحرق، التي غالباً ما أكلتها نار من السماء، ومن المعتقد أنه في داخل هذه الصخرة أخفى النبي إرميا بشكل إعجازي في قلبها خيمة العهد، عندما جرى نقل الناس إلى بابل، وفعل ذلك وهو يقول: «بالنسبة لذلك المكان سيظل غير معروف حتى يحين الوقت الذي يجمع فيه الرب شعبه مع بعضهم بعضاً ثانية، ويتلقاهم في الرحمة»، ومن المعتقد أنها ماتزال موجودة هناك حتى هذا اليوم.

وعلى هذه الصخرة جرى تقديم المسيح عندما كان طفلاً، ووضع بين ذراعي سمعان العدل، وجرى تقديمه من قبله، وفوق هذه الصخرة تجادل المسيح مع اليهود عندما كان صبياً في الثانية عشرة من العمر، وضيعه أبواه، ومن فوق هذه الصخرة غالباً ما تولى وعظ الناس.

وقد قرأنا بأن الهيكل قد بني من قبل سليمان فوق أرض بيدر أرنان، وقد تعرض على كل حال للتهديم على أيدي كثيرين، ومع هذا أعيدت عمارته دوماً فوق البقعة نفسها، بالشكل نفسه، وبالْحجارة نفسها، زيادة على ما تقدم شرف الرب هذا الهيكل كثيراً ومجده، وأحبه كثيراً.

وفي هذا الهيكل رأى سليمان دخاناً صاعداً نحو الأعلى، ومجد الرب مقيماً دوماً فوقه، وفي هذا الهيكل أورقت عصا هرون، وفي هذا الهيكل جرى تقديم مريم العذراء المباركة، وقدمت قربانها بعد خطبتها، وفي هذا الهيكل جرى تقديم المسيح، وجلس فوق منارته العليا، وأغوي من قبل روح (الشيطان)، وإلى خارج هذا الهيكل أيضاً قذف المسيح بالذين كانوا يبيعون ويشترون، وغالباً ماتولى التعليم هناك والمناقشة، وصنع

كثيراً من المعجزات، وذلك حسبما جاء في الانجيل، وكرس المسيح أيضاً هذا الهيكل بحضوره المجيد، وعانى فيه، وهو على شكلنا الضعيف كثيراً من الاهدانات ومن سوء المعاملة على أيدي اليهود، ومن أعلى هذا الهيكل جرى رمي القديس جيمس الأصغر - أخي ربنا - نحو الأسفل حيث استشهد.

وعلى مقربة من هذا الهيكل، على جهة اليسار هناك، يوجد الباب الذهبي، الذي من خلاله دخل يسوع يوم أحد السعف، وهو راكب على ظهر أتان، وإلى هذا الباب يقوم المسيحيون كل يوم أحد سعف بمسيرة مهيبّة قبل شروق الشمس، ويغني الأطفال عبر هذا الباب «المجد لابن داوود» الخ، ثم يدخل رئيس أساقفة الأرمن من الباب على ظهر أتان، ويرحب به من قبل الأطفال والناس، وكأن المسيح كان موجوداً هناك، ويرحب به من قبل اليهود.

وعلى مسافة قصيرة إلى الشمال من هذا الهيكل هناك كنيسة بنيت فوق البقعة التي ولدت فيها مريم العذراء المباركة، وفوق هذه البقعة نفسها ترقد القديسة حنة مدفونة هي وزوجها يواكيم في كهف تحت الأرض.

وأمام هذه الكنيسة تقوم بركة الضأن، التي لها خمس قناطر من حولها، وهناك اعتاد المرضى على نيل الشفاء عندما يجري تحريك الماء من قبل أحد الملائكة، وذلك حسبما تحدث الانجيل وأكد ذلك، وفي هذه الأيام هناك كهف، فيه تتجمع - عندما تمطر - كل مياه أمطار المدينة مع بعضها.

وخارج كنيسة القديسة مريم هذه، بنى المسلمون الآن مسجداً خاصاً بهم، ومع ذلك ما تزال قصة حنة ويواكيم وميلاد مريم المباركة، باقية حتى هذا اليوم مرسومة بجلال بشكل كامل على واجهة الكنيسة، وفي أيامي اعتادت امرأة مسلمة عجوز اسمها ياقوتة على شرحها بتقوى

وتدّين إلى المسيحيين، وكانت تسكن في مقابل الكنيسة، وأعلنت أن صورة يواكيم هي صورة لمحمد (ﷺ) وتمثل صورة الأشجار الجنة، حيث قبل فيها محمد (ﷺ) فتيات، وأشارت إلى الصورة كلها أن المراد بها محمد (ﷺ)، ولهذا هي باقية إلى الأبد. وتراها تتحدث بأخبار أخرى كثيرة، مع المزيد من قصص إعجازية حول محمد (ﷺ) تحكيها والدموع في عينيها.

وليس بعيداً عن هيكل الرب، وعلى الجانب الجنوبي، تحت المدينة، توجد رابية صهيون، التي هي أعلى بقليل من بقية الأرض التي تقوم المدينة عليها، وعلى هذا الجبل قامت في القديم مدينة داوود، التي تشير إليها الكتابات المقدسة.

وعلى جبل صهيون هذا، أو في مدينة داوود، بُني في القديم دير فائق الجمال اسمه دير القديسة مريم على جبل صهيون، حيث عاش فيه رهبان نظاميون، وكان في داخل هذا الدير جميع الأماكن المقدسة التالية وأول كل شيء: في هذا المكان تعشى المسيح مع حواريه، واحتفل بأول فصح، وعمل عهده، وكشف خائنه، بينما تمدد حواريه فوق صدره وشربوا في أسرار السماء، وفي هذا المكان أيضاً غسل المسيح بتواضع أقدام حواريه، وجففهم بمنديل، ومع أنه كان مولاهم ومعلمهم، فقد أعطاهم مثلاً بالتواضع، وأيضاً زار المسيح مراراً هذا المكان عندما كان مايزال في الجسد، وظهر في هذا المكان بعد موته وقيامته، لحواريه، وكانوا جالسين وراء أبواب مغلقة، ثم شوهد هناك ثانية، وهناك أدخل توما الشاك إصبعه في جنبه، وهناك أيضاً كانت مريم المباركة جالسة مع الحواريين، والأبواب موصدة، خوفاً من اليهود، وذلك في الوقت الذي تلقوا فيه المواساة من الروح القدس، وهنا أيضاً غالباً ما سكنت مريم المباركة بعد آلام الرب، وفي هذا المكان سلمت روحها إلى ابنها، واجتمع هنا الحواريون جميعاً بشكل إعجازي، وفي هذا المكان

أيضاً جرى بشكل عجائبي اختيار القديس متى رسولاً، وهنا أيضاً غالباً ما أقام الحواريون المحبوبون قداسات مع مريم المباركة، وسكنوا هنا مع القديسة مريم والقديس لوقا، حتى وفاة مريم المباركة.

وفي هذا المكان أيضاً جرى دفن القديس ستيفن بين نيقوديموس وأبيوس، وأيضاً جرى في هذا المكان دفن داوود وسليمان وملوك يهوذا الآخرين، ومن الممكن رؤية قبورهم حتى هذا اليوم، ويسكن في هذا الدير الآن رهبان منوارنة، وهو مزود في أيامي بشكل وافر بجميع الضروريات، من قبل ملكة سانيسا Sancea، زوجة الملك روبرت (١)، ويقومون هناك بإقامة القداسات بشكل علني وتقوي، باستثناء أنه غير مسموح لهم بالتبشير بشكل علني إلى المسلمين، ويتولون دفن موتاهم من دون معرفة حكام المدينة، وكان هؤلاء الرهبان في أيامي رجالاً مزدهرين كثيراً، وقد تولى التجار الأجانب، لابل حتى المسلمون، مدحهم كثيراً، لأنهم يقدمون خدمات جيدة إلى جميع الناس.

ويقوم هناك عند سفح هذا الجبل قلعة فائقة الحصانة، اسمها قلعة داوود، حيث من المعتقد أنها ماتزال باقية منذ أيام داوود، لأنه عندما جرى هدم هذه المدينة من قبل تيتوس وفسبسيان كان جبل صهيون وهذه القلعة قائمان خارج المدينة، وكانت هذه القلعة مملوكة فيما مضى من قبل بطريك القدس، لكنها الآن مسكونة من قبل واحد من قادة السلطان، وهي محروسة بكل عناية من قبله ومن قبل مرتزقته.

وعند سفح هذا الجبل هناك أيضاً كنيسة، اسمها كنيسة القديس

١ — يقول بعضهم بأن هذا الملك، لاند أنه كان إما شارل روبرت صاحب أحمو، وملك هنغاريا، أو روبرت بروس ملك سكرتلندا،

والأرجح — بعد قراءة رواية فابري، حول الدير الماروني فوق جبل صهيون — أن يكون لودولف أراو روبرت Rupert ملك أبوليا،

وكليبر، وصقلية، والقدس.

المخلص، وفيها توجد الصخرة التي دحرجها الملاك، وأزاحها من على الضريح، وهي هناك معروضة للمشاهدة بشكل عام، وعلي مقربة من هذا الجبل أيضاً جرى إعدام القديس جيمس الكبير صبراً، وقد بني فوق تلك البقعة كنيسة، فيها الآن رئيس أساقفة الأرمن، ورهبان نظاميون تحت الطاعة للكنيسة الرومانية، ويوجد كذلك في القدس كنية أخرى اسمها كنيسة القديسة مريم لللاتين. فضلاً عن هذا يوجد في القدس كثيراً من الكنائس تابعة للمنشقين والمراطقة، وأماكن أخرى كثيرة مقدسة، ومواضع ظهرت فيها نعمة الوحي.

وفوق جبل أكرا، وضريح المسيح، توجد كنيسة جميلة وعظيمة، قد بنيت هناك، وزينت بالرخام، وبأعمال الفسيفساء، والرسوم، وتزيينات أخرى، ولها أبراج أمام السدة، وفوقها وهي مفتوحة من الأعلى، فوق موضع ضريح المسيح، ويشبه داخل هذه الكنيسة كثيراً كاتدرائية مونستر Munster في وستفاليا Westphalia، وبشكل خاص بالسدة، وفي هذه الكنيسة، على مقربة من السدة، يقوم على الجانب الجنوبي جبل الجمجمة (أكرا) حيث جرى صلب يسوع المسيح، ويصعد الانسان في هذه الأيام إلى هذا الجبل بوساطة بعض السلام في داخل الكنيسة، وكان من المعتاد فيما مضى على الصعود إلى هناك بوساطة سلام كانت خارج الكنيسة، غير أن هذا الباب مغلق ومسدود من الخارج.

وهذا الجبل مشكل من صخرة قاسية جداً، وفي أسفل هذا الجبل توجد بيعة النوبيين، قد نجرت من الصخر الأصم، ويوجد على قمة جبل أكرا هناك أيضاً بيعة، يصعد الانسان إليها من داخل الكنيسة، وهناك في المكان الذي جرى صلب المسيح فيه، شق فيه وضع الصليب، ومن الممكن حتى في هذا اليوم رؤية التحول الذي ألم بالصخر الأصم أثناء آلام المسيح، بكل وضوح، وفي هذه البيعة نفسها جرى دفن

الأمراء المعجدين: غودفري، دوق أوف بولليون، وبلدوين أخيه، الذي كان أول ملك صليبي للقدس، والذي نال الأرض المقدسة واستولى عليها بجهد كبير جداً، وبقوة استرد هذه الأرض واحتفظ بها، وألحق بالمسلمين أذى لا يقدر بحجمه، ومنح المسيحية وأضفى عليها أعظم الأعطيات، وإنه لأمر مدهش حقاً أن تمكن المسلمون من الاستيلاء على قبور الصليبيين والأجساد التي وضعت فيها لترتاح دوننا إزعاج، ومع أنهم رأوا كم قد ألحقوا بهم من أضرار، وكيف أنهم انتزعوا منهم حتى الأرض المقدسة كلها، تجدد في لومبارديا عندما يتشاجر المسيحيون فيما بينهم، يلقي أحدهم أجساد خصومه المتعفنة إلى الكلاب.

وكان الأمراء الفرنجة الذين تقدم ذكرهم قد اتخذوا قراراً بوجوب عدم لبس تاج ذهبي، بل أن يلبسوا تاجاً من الشوك، وقد حافظ خلفاؤهم على هذا القرار حتى هذا اليوم، ويجري كل يوم على جبل الجمجمة — عندما يكون أي مسيحي ساكن هناك — قراءة قصة آلام المسيح، وذلك حسبما قرأت بكتاب قداساتهم، وعلى مقربة من جبل الجمجمة، حيث يوجد الآن خزانة، هناك الموضع الذي وقفت فيه أمه وحواريوه والنساء الأخريات، وهناك عهد يسوع بأمه لعناية حواريه، وهو يقول: «انتبهي يا امرأة لابنك»، ويوجد أمام باب السدة، من جهة اليمين، صخرة سوداء، فهناك الموضع الذي مددوا عليه جسد يسوع عندما أنزلوه من على الصليب، ولفوه بأقمشة كتانية، وتقوم أمام السدة، من جهة الغرب، بيعة صغيرة مزدوجة، لها ثلاثة أبواب، وفي داخلها ثلاثة مذابح قائمة هناك، ويدخل الانسان من البيعة الأولى إلى البيعة الثانية، حيث يوجد ضريح المسيح، ويأتي دخوله من خلال باب منخفض وصغير ومقنطر على شكل نصف دائري، وقد عمل على هذا الشكل حتى يرغب الانسان على الدخول وهو منحني الظهر، وطول هذه البيعة مع الضريح حوالي تسعة أشبار، وعرض البيعة حوالي سبعة

أشبار، وارتفاعها حوالي اثني عشر شبراً، وضريح المسيح منجور من صخر أصم، وخشبية من تدنيسه، أو سرقة من قبل الحجاج، هو مغطى بحجارة أخرى ورخام، وتحتوي الحجرة التي تغطيه من الواجهة على ثلاث فتحات، حيث جرى خرقها، ويستطيع الانسان من خلال هذه الفتحات أن يقبل الضريح الحقيقي والحجر الصحيح هناك، وصنعت الحجارة التي تغلف الضريح ولصقت ببراعة فوق الضريح، جعلتها تبدو لمن لايعرف وكأنها كلها حجرة واحدة، ولهذا السبب، كما أعتقد أنه لا يوجد في أي كنيسة قطعة من الحجر الحقيقي لضريح المسيح، لأنه باستثناء الأماكن المفتوحة التي سمعتم للتو عنها، إنه قد حفظ، ومحفوظ بعناية عظيمة ومحروس، وفي الحقيقة لو كان من الممكن حمل ضريح المسيح على شكل حبات الرمل، لثم الفراغ من نقله منذ زمن طويل، حتى لو أنه كان كبيراً مثل جبل عظيم، ولما كانت قد بقيت هناك حبة رمل واحدة في تلك البقعة.

أما فيما يتعلق بالمصابيح والشمعدانات التي قيل هي موجودة حول الضريح المقدس، أعلن أنه لا يوجد أبداً أي مصباح أو شمعدان مهما كان نوعه حول الضريح، لكن يسكن هناك في كنيسة الضريح المقدس بعض الشيوخ الجورجيين المتقدمين بالسن، لديهم مفتاح بيعة الضريح المقدس، وطعام، وصدقات، وشموع، وزيت للمصابيح حتى تشتعل وتضاء حول الضريح المقدس، وقد أعطي ذلك لهم من قبل الحجاج من خلال نافذة صغيرة في الباب الجنوبي للكنيسة، وإذا ما توقف هذا وانقطع، سوف يبقى بدون ضوء مهما كان نوعه، وبذلك يكون بدون تشريف أو احترام، لأن لدى المسلمين من الاحترام للضريح المقدس للمسيح، بقدر مالدى المسيحيين نحو كنيس يهودي.

ويوجد في هذه الكنيسة أيضاً، في مقابل السدة، مع مسافة ضئيلة نحو الجنوب، هناك الموضع الذي وقفت فيه المريات الثلاث، وقالت

إحداهن للأخرى: «من سيدحرج هذه الصخرة لنا ويزيحها عن فم الضريح»؟.

وفي هذه الكنيسة نفسها أيضاً يقوم شطر من العمود الذي ربط المسيح إليه وجلد، والشطر الآخر موجود في القسطنطينية.

وينزل الانسان في هذه الكنيسة أربعين درجة إلى المكان الذي عثر فيه على الصليبان الثلاثة، ويوجد في هذا الجزء المنخفض، في داخل بيعة هناك، الكرسي الأسقفي لجيمس الأصغر، الذي اعتاد أن يجلس عليه عندما كان أسقفاً للقدس.

وفي هذه الكنيسة أيضاً توجد الأعمدة التي كانت موجودة في بيت بيلاطس، أيام آلام المسيح، وهذه الأعمدة لم تتوقف منذ ذلك الحين حتى الوقت الحالي عن رشح ماء عذب، فضلاً عن هذا يوجد في هذه الكنيسة الموضع الذي مدد فيه الرجل الميت فوق صليب المسيح، فنهض عائداً إلى الحياة.

وفي هذه الكنيسة يوجد أيضاً المكان الذي ظهر فيه يسوع إلى مريم المجدلية على شكل حدائقي، وجميع هذه الأماكن مسيجة في داخل هذه الكنيسة، وتبدو هذه الكنيسة كأنها قصر مستعد لتلبية احتياجات الحجاج، مع الذين يعيشون محبوسين في داخلها، لأن الحجاج الذين يزورونها يجلسون هناك في داخلها من الساعة الأولى لليوم الأول، حتى الساعة نفسها من اليوم التالي، ويمكنهم توقع وجود كل شيء فيه رضى لنفوسهم، فلمرتين في العام — أي أن تقول من الجمعة الحزينة حتى اليوم التالي للعيد — يترك المسيحيون، الذين يسكنون هناك، أنفسهم ويجلسونها في الكنيسة، بدون شيء، ويغلقون على أنفسهم، ووقتها يجد الانسان حوائت في الكنيسة، حيث توجد مختلف الأشياء، وحيث تباع الأطعمة، مثلما تجري عمليات البيع في هذه البلاد في الأسواق

والمعارض، ووقتها يستمع الانسان إلى أحاديث وأغان بمختلف اللغات، وتقوم كل عدة أمم باحتجاز مكان خاص بها لإقامة قداساتها وفقاً لطقوسها الخاصة، ومن بين هذه الأمم يحتجز اللاتين لأنفسهم المكان الذي ظهر فيه المسيح لمريم المجدلية على شكل حدائقي.

وعلى مقربة من كنيسة الضريح المقدس، سكن فيما مضى فرسان القديس يوحنا للقدس، وقصرهم الآن مشفى عام للحجاج، وهذا المشفى كبير في حجمه إلى حد أنه يستطيع ألف إنسان أن يعيشوا فيه بكل سهولة، وأن يحصلوا على كل شيء يريدونه بالدفع مقابله، وجزت العادة في هذا القصر أو المشفى، أنه يجب على كل حاج أن يدفع بنسبن بندقين، وذلك مقابل استخدام المشفى، وهذا المبلغ لا يتغير سواء أأقام لمدة سنة، فهو لن يدفع المزيد، أو أقام لمجرد يوم واحد فهو لن يدفع أقل، وفي أيامي كان يسكن هناك في هذا القصر، أو المشفى عقيلة اسمها مرغريت الصقلية، وكان أخوها هو الكاهن المسؤول عن الضريح المقدس واسمه نيقولا، وكانت مرغريت هذه مفيدة جداً وخدمتة هناك، ولمعلوماتي المؤكدة أنها عانت من شقاء عظيم ومتاعب جمة في سبيل محبة المسيحيين، ولاقت دوماً تقديراً خاصاً من السلطان وعناية بسبب فائدتها، وعليك أن تعرف أن الكهنة المسؤولين عن الضريح المقدس يمتلكون امتيازات عظيمة وحقوقاً كبيرة، وذلك حسبما قرأت في كتاب قداساتهم، ويبدأون (القداسات) لكل ساعة من ساعات النهار بعبارة «المجد»، وذلك مثلما نفعل عندما نقول *In adiutorium* الخ، علماً بأنهم كرجال، العالم كله يشهد لهم من أقصاه، وهم يقرأون جميع القضايا الرئيسية الموجودة في الانجيل مع حركات جسدية وإيماءات، وعلى سبيل المثال يقرأ الشماس في يوم عيد الفصح الانجيل كمايلي: «وجلبت في ذلك الوقت مريم المجدلية، ومريم أم جيمس، وسالومي، بعض الحنوط، حتى يمكنهن الوصول إلى هناك ومن ثم

دهن يسوع»، وعندما يصلون إلى كلمات: «هو ليس هنا، هو قد قام»، وقتها يشير الشماس بإصبعه إلى ضريح المسيح، ويفعل الشيء نفسه في القضايا الأخرى، وفي مقابل الكنيسة، على الجانب الغربي، هناك الصخرة، التي استراح عليها يسوع لبعض الوقت، عندما كان حاملاً لصليبه، وذلك عندما خانته قواه بسبب عذابه ووزن الصليب وثقله، وهناك أرغم اليهود سمعان القرني، الذي كان قادماً من قريته، أجبروه على حمل الصليب، وقرب الكنيسة، وعلى مسافة ضئيلة نحو الجنوب، توجد الصخرة التي وقف يسوع عليها عندما قال: «يا بنات القدس لا تبكين عليّ، بل ابكين على أنفسكن» الخ»، ومن الممكن رؤية بلاط منزل بيلاطس في القدس حتى هذا اليوم، لكن هذا المنزل كان آنذاك خارج المدينة، ومثله بيت كيفاس، حيث اجتمعوا فيه يتشاورون، وقد تنبأ قائلاً: «إنه لمن الموائم أن يموت رجل واحد من أجل الشعب»، وهذا البيت يبعد عن القدس مسافة ثلاثة أميال من أميال تلك البلاد، فضلاً عن هذا، يمكن للإنسان أن يشاهد كثيراً من الأماكن العجيبة والمقدسة، يحتاج الحديث عن كل واحد منها إليكم إلى وقت طويل.

ولدى المضي من القدس، يصل الإنسان إلى مدينة كانت فيما مضى جميلة، لكنها الآن مهجورة، وهي قائمة في المنطقة التلية لليهودية، واسمها زكريا، وهي تبعد مسافة خمسة أميال عن القدس، وفي هذه المدينة عاش زكريا وإيزابل، والدا يوحنا المعمدان، وإليها جاءت مريم المباركة من الناصرة، وكان ذلك بعدما تلقت كلمة البشارة من جبرائيل، وعندما قابلتها إيزابل قفز الولد في رحمها، وقالت مريم المباركة «إن روحي تمجد الرب» الخ.

وقد بني فوق المكان الذي التقينا فيه وعانقت إحداهن الأخرى، كنيسة فائقة الجمال اسمها «المجدة» حتى هذا اليوم، ويبعد هذا المكان عن الناصرة سفر ثلاثة أيام ونصف اليوم، بالسفر المستعجل، وهو ما

قامت به وقتها أم ربنا، وذلك حسب رواية الانجيل (لوقا: ١/٣٩) حيث جاء قوله: «قامت مريم وذهبت بسرعة إلى الجبال في منطقة اليهودية»، وفي هذه المدينة جرى أيضاً الحمل بالقدّيس يوحنا المعمدان، كما تمت ولادته، وفي أثناء عودة الانسان من مدينة زكريا هذه يرى المكان المعتقد أن شجرة صليب المسيح قد نمت فيه، فضلاً عن هذا يرى الانسان على جانب الطريق كثيراً من قبور القديسين، والنسك، والكهوف، والأقبية، حيث يتم العثور هناك حتى هذا اليوم على عدد كبير من أجساد القديسين كاملة غير فاسدة، الذين يعرف الرب وحده أسماءهم.

وفي عودة الانسان إلى القدس عبر هذا الطريق، هناك موجود خارج الباب الشمالي المكان الذي جرى فيه رجم أول الشهداء، القديس ستيفن، ويبدو أنه كان هنا كنيسة جميلة غير أنها الآن مهدمة، وهي قائمة فوق وادي شعفاط، وفي وادي شعفاط هناك كنيسة مقدسة، لكنها ليست جميلة جداً، قد بنيت على شرف مريم المباركة، فمنها ينزل الانسان ستين درجة فيصل إلى ضريح مريم المباركة، الذي هو مزين بمصابيح وشمعدانات أجمل وأكثر عدداً مما هو موجود عند ضريح المسيح.

والمكان الذي يقوم فيه الضريح ليس أوسع مما يستطيع ثمانية رجال أن يقفوا فيه بشكل موثم، وشكل ضريح المسيح وضريح مريم المباركة هو هذا نفسه، والمكان الذي تقوم فيه هذه الكنيسة قد كان في أيام آلام المسيح بيت عناس، الكاهن الرئيسي، وهناك حدث أن أنكر بطرس المسيح، ويقوم فوق البقعة التي أنكره عليها عمود رخامي، ليكون بمثابة ذكرى أبدية، ومن المعتقد أن المسيح سوف يأتي إلى هذا الوادي في يوم القيامة، فيكون حكماً عادلاً، يجازي كل إنسان تبعاً لأعماله.

ويجري خلال هذا الوادي نفسه، وادي قدرون، الذي تتجمع فيه

جميع المياه التي ترشح من المدينة ومياه الأمطار التي تأتي من الهضاب على كلا الجانبين هناك، وعلى مقربة من هذا الوادي، عند سفح جبل الزيتون، توجد الحديقة التي ألقى فيها القبض على يسوع، وذلك حيث تمت خيانتته من قبل يهوذا بقبله، وغالباً ما زار الرب عندما كان بالجسد هذه الحديقة مع حواريه، وتقوم كنيسة جميلة في المكان الذي ألقى القبض فيه على المسيح، لكن المسلمين يربطون الآن فيها قطعانهم وحيواناتهم ويطعمونها.

وعلى مسافة صغيرة من الحديقة، نحو اليسار، وتحت صخرة هناك، يوجد المكان الذي صلى فيه المسيح إلى الآب قائلاً: «أيها الآب، إذا كان من الممكن، دع هذا الكاس يتجاوزني»، وفي أثناء خوفه وضعفه الانساني تعرق دماً.

وعند سفح الجبل المقابل، حيث بنيت القدس، توجد بركة سلوان للاستحمام، والذي هو موجود الآن فيها مجرد مجموعة من المياه الآسنة، وعبر بركة الاستحمام وفي قبالتها يقوم تمثال أبسالوم، وهو مصنوع ببراعة، وله حجم رائع.

وفوق وادي شعفاط، نحو الجنوب، يوجد حقل الفاخوري، أو حق الدم، ويسمى أيضاً حقل الدم، ذلك أنه شري بثمان الدم، من أجل دفن الغرباء فيه، غير أن واحداً من التواريخ الشرقية قد أوضح أن الذي شري منه هو ماتساوي قيمته خمسة عشر بنساً فقط، وهذا بالفعل أمر يمكن تصديقه، لأنه لا يستوعب ثلث الحقل.

٣٩ — حول الثلاثين قطعة من الفضة

نحن نقرأ في تاريخ ملوك الشرق الذين قدموا أعطيات إلى ربنا، أن تيراج والد ابراهيم كسب مالاً، أو بنسات، وذلك بناء على طلب ملك لبلاد الرافدين اسمه نينوس، وأنه قد تسلم ثلاثين قطعة من الفضة

إيجاراً له، وقد أعطى قطع الفضة هذه إلى ابراهيم، الذي أنفقهم خلال أسفاره في المنفى، وجرى تداول هذه القطع الفضية بين مختلف الأيدي، حتى وصلن إلى أيدي الاسماعيليين، وبهن جرى شراء يوسف من أخوته، وفيما بعد عندما صار يوسف حاكماً في مصر، رجعت قطع الفضة هذه إلى أيدي يوسف، وحصلن له من أخوته كئمن للقمح، ولدى إعادتهن إلى أخوته، أعطاهن أخوة يوسف إلى حاجبه، الذي بعث بهن إلى سبأ لشراء بضائع من أجل فرعون، وفي أيام سليمان، عندما جاءت ملكة سبأ من الشرق للاستماع إلى حكمته، قدمت هذه الثلاثين قطعة فضية إلى الهيكل، وفي أيام رحبعام، عندما قام نبوخذ نصر بنهب الهيكل والاستيلاء على كنوزه، أعطى الثلاثين قطعة من الفضة والكنوز الأخرى إلى ملك جودوليا Godolia الذي كان معه في جيشه، وهكذا بقيت هذه القطع مع بقية الكنوز في خزانة ملوك جودوليا حتى وقت ميلاد المسيح.

وانتقلت في ذلك الوقت مملكة جودوليا إلى النوبة، وحدث عندما ولد ربنا، أن رأى ملكيور، ملك النوبة في النجوم أن المسيح قد ولد من عذراء، وبناء عليه أخذ الثلاثين قطعة، لأنه لم يجد ما هو أفضل أو أقدم بين ذهب خزانته، وبإرادة من الرب منحهم إلى المسيح، وفيما بعد عندما هربت مريم العذراء المباركة إلى مصر لخوفها من هيروود، فقدت الثلاثين قطعة مع بقية هدايا الحكماء، في مكان هو حيث قامت حديقة البلسم الآن، وقد عثر راعي عليهم واحتفظ بهم لمدة ثلاثين عاماً، ثم كان أن انتشر صيت المسيح في الخارج، وقدم هذا الراعي نفسه إلى القدس، حيث تولى المسيح شفاء مرضه، وعندما كان المسيح يعظ في الهيكل ويعلم، منحه هذا الراعي الثلاثين قطعة مع بقايا هدايا الحكماء، لكن المسيح رفض أخذهم، وطلب منه منح القطع الفضية للهيكل، ووضع الهدايا الأخرى فوق المذبح، ونفذ الراعي هذا، وألقى اليهود الثلاثين

قطعة في قربان، وأعطوهن فيما بعد إلى يهوذا من أجل خيانة يسوع، ثم لما أعادهن يهوذا ثانية، اشتروا حقل الفاخوري بخمس عشرة قطعة، وأعطوا الخمس عشرة قطعة المتبقية إلى العساكر الذين تولوا حراسة ضريح المسيح، وبعدهما صنع بهذه القطع مارسم لهن بالقدر وتقرر، جرى إثر ذلك اقتسامهن ومن ثم تفرقهن هنا وهناك، لكن حتى صنع ذلك الذي تقرر وجوب صنعة بهن، جرى الاحتفاظ بهن معاً كما سمعت، وتطلق الكتابات المقدسة عليهن اسم بنسات فضية، لأنه في القديم أطلقوا على جميع المعادن اسم الفضة، إنما مما لاشك فيه كن من الذهب.

وحقل الدم ليس حقلاً واسعاً حسباً أخبرتك، لكنه يحتوي على حفرة عميقة جداً قد حفرت فيه، ولهذه الحفرة سقف مقنطر فوقها، وهذا السقف مخروق بوساطة فتحات، ومن خلال هذه الفتحات يجري إلقاء أجساد الموتى إلى داخلها، وبعد ثلاثة أيام لا يبقى شيئاً سليماً من هذه الأجساد غير العظام، ذلك أن مكاناً ضيقاً بهذا القدر، لا يمكنه أن يستوعب مثل هذا العدد الكبير جداً من الأجساد.

وعلى مقربة من هذا الحقل هناك مكان فائق الجمال، وفيه أشجار جميلة جداً، كان الرهبان الدومينيكان يحاولون شراؤه، عندما كنت على وشك المغادرة، ولأعرف إن كانوا قد حصلوا عليه أم لا، وعلى مقربة منه هناك كثيراً من قلايات القديسين وصوامع النسائك التي كانت تفيض بالنعمة، لكنها الآن مهجورة، ومثل ذلك على مقربة من هذا الكهف يوجد الكهف الذي أخفى بطرس نفسه فيه بعدما أنكر المسيح، ومن ثم بكى بحرقة، وليس بعيداً عن هذا الكهف يوجد المكان الذي شق يهوذا فيه نفسه وهو في حالة يأس.

٤٠ - جبل الزيتون

وعلى مقربة من القدس، باتجاه الشرق، يقوم جبل الزيتون، الذي يعرف الآن باسم جبل الضياع، وهو مكان جميل جداً، مع وجود وادي شعفاط فقط بينه وبين القدس، وجبل الزيتون أعلى بكثير من المدينة، إلى حد أن كل شيء في المدينة يمكن رؤيته من قمته، وأطلق عليه اسم جبل الزيتون لأن كثيراً من أشجار الزيتون قد نمت هناك، وكما قلنا يعرف أيضاً باسم جبل الضياع، لأنه في أثناء الليل تشع أضواء الهيكل من فوق في مقابله، والبابان الشرقيان للقدس اللذان يقودان إلى الجبل مغلقان بشكل دائم، لأن وادي شعفاط بين المدينة والجبل منحدر إلى درجة يصعب فيها على الانسان التسلق والصعود إلى الأعلى، والنزول نحو الأسفل على يديه، وعلى قدميه، والذي هناك الآن باب واحد فقط اسمه الباب الذهبي، وتقوم على جبل الزيتون كنيسة جميلة اسمها كنيسة القديس المخلص، وذلك فوق المكان، الذي صعد منه المسيح بتواضع إلى أبيه بعد مضي أربعين يوماً على آلامه، وحيث قالت الملائكة إنه سوف تتوجب عودته ثانية كحكم عادل، ومن الممكن رؤية علامات قدم المسيح على بلاط تلك الكنيسة حتى هذا اليوم، ولقد قرأنا بأن المسيحيين عندما كانوا قد شرعوا ببناء تلك الكنيسة وببليطها، كانوا كلما جاءوا إلى المكان الذي كانت فيه طبعات قدم المسيح ووضعوا حجارة فوقها، كانت الحجارة تنبعث عالية مجدداً، وكأن إنساناً يريد أن يخطو، وهكذا بقيت طبعات القدم حتى اليوم الحالي، والكنيسة مفتوحة، لأنه من غير الممكن صنع سقف مقنطر بأي وسيلة من الوسائل فوق المكان الذي عبر المسيح من خلاله إلى عليين، ويوجد على جبل الزيتون أيضاً، وتقوم كنيسة صغيرة أخرى فوق المكان الذي تلا فيه المسيح صلاة الرب، وعلمها لحوارييه، وماتزال الكنيسة تدعى باسم «الصلاة الربانية»، وقد قام فيها مضي أيضاً فوق هذا الجبل بيعة أخرى، وهي

الآن مهدمة، وقد قامت فوق المكان الذي رأى المسيح منه المدينة وبكى عليها، وتوجد على هذا الجبل نفسه قرية صغيرة اسمها الجليلية، وهي غالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة، وذلك حيث سكن الحواريون مع بعضهم، وهذه الجليلية هي التي نقرأ حولها: «أذهب إلى الجليلية، وهناك سوف تراه، كما قال لك»، كما نقرأ: «إنني سوف أذهب قبلك إلى الجليلية»، هذا وهناك جليل أخرى التي هي بلاد كبيرة، وتبعد سفر ثلاثة أيام، وذلك حسبما سأحدثكم فيما بعد، وفوق هذا الجبل، هناك أيضاً أماكن سكنى قديسين، وسواح وصوامع نساك بهية.

وعلى مقربة من جبل الزيتون تقوم بيت فاجي، حيث ركب المسيح في يوم أحد السعف الأتان للذهاب إلى القدس، ولا بد أنه كان راكباً جيداً، وإلا لا يستطيع إنسان أن يخبر مطلقاً أن إنساناً يمكنه وهو راكب على ظهر أتان، أن ينزل على مثل ذلك الطريق، لأن هذا الطريق منحدر جداً، وضيق من جبل الزيتون، وعلى بعد نصف ميل قصير من بيت عنيا تقوم قرية بيت فاجي، التي كانت فيما مضى قلعة جميلة جداً، قائمة على طرف الرايبة، وفيها ثلاث كنائس، تقوم أولاهن فوق المكان الذي أقيم اللعازر فيه من الموت، وضريحه ما يزال يشاهد هناك، هذا وإن قبور: المسيح، ومريم المبارك واللعازر هي ذات شكل متشابه، وتقوم الكنيسة الثانية في المكان الذي كان فيما مضى بيت سمعان المجذوم، وذلك حيث دعي المسيح إلى غداء، وجاءت مريم المجدلية المباركة، ودهنت شعر المسيح يسوع مع قدميه، ثم غسلتهم بدموعها، وجففتهم بشعرها، فهذا ما تتحدث الكتابات المقدسة عنه وتوثقه، واتخذت الكنيسة الثالثة من قصر مرثا، حيث جرى بالغالب استقبال ربنا وهو في هيئة ضعفنا البشري، وهو جائع، وعطشان، وعريان، ومنهك، فقد استقبل بمثابة ضيف، وجرى تقديم ما احتاج إليه وتمت مواساته عندما كان بلا بيت.

ويربط المسلمون الذين يسكنون الآن هناك ثيرانهم وحيوانات التحميل لديهم، في هذه الكنائس، وفي هذا المكان نصب سليمان صنم مردوخ العائد إليه.

٤١ - أريحا - الصحراء - سدوم وعمورة

ويصل الانسان من بيت عنيا إلى الأردن في يوم واحد، وذلك بعد عبوره لبرية صغيرة اسمها مونتوست Montost ، وقام في هذه البرية القديس يوحنا المعمدان بالتعليم، وأكل الجراد والعسل البري في المكان نفسه، وحدث في هذه البرية أيضاً أن سقط إنسان بأيدي اللصوص، وكان ذلك أثناء نزوله من القدس إلى أريحا، وذلك حسبما حدثتنا الكتابات المقدسة، ويوجد في نهاية هذه البرية الجبل الذي اسمه جبل القرنطل، فهناك فوَّقه صام يسوع لمدة أربعين يوماً وأربعين ليلة، فكان جائعاً، وهناك أغواه الشيطان ليعمل خبزاً من الحجارة، وفي منتصف الطريق في أعلى الجبل هناك صومعة جميلة قد نحتت في الصخر، فيها صام المسيح، وفيها يعيش الآن رهبان جورجيون، وتسبب في أيامي ملك جزره Gazara بتدمير الطريق، حتى لا يتمكن الرهبان من النزول، والحجاج من الصعود إلى هناك، لكن عندما سمع بالسلطان بهذا، تدبر إعادة ترميم الطريق، وسمح للرهبان بالإقامة هناك بشكل أبدي.

وعلى قمة هذا الجبل تقوم كنيسة جميلة، في المكان الذي أغوي فيه المسيح من قبل الشيطان، وعن هذه البرية ذاتها نقراً: «ثم أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليغوى من إبليس» [متى: ٤ / ١].

وعلى مقربة من هذا الجبل، وباتجاه سهل الأردن، هناك نبع، وحديقة فائقة الجمال، فهناك سكن إبراهيم عندما جاء من بلاد الكلدان، وبنى مذبحاً هناك، ودعا باسم الرب، واسم هذا المكان بستان إبراهيم حتى

هذا اليوم.

وبعدما يعبر الانسان هذه الأماكن يصل إلى أريحا، التي كانت فيما مضى مدينة ملكية ومشهورة، وقد تراجعت الآن إلى قرية صغيرة، غير أنها قائمة في بقعة فائقة الجمال وخصبة جداً، في وادي الأردن، وهذه هي أريحا التي هدم الرب أسوارها بمعجزة، وأعطاهما إلى يوشع، مع إلقاء اللعنة على من سوف يحاول عمارتها.

وإلى أريحا هذه انتمت راحاب العاهرة، وزكّا الذي كانت قامته قصيرة، وكان من أريحا هذه الطفل الذي سخر من النبي إيليا بقوله له: «إذهب يا أقرع الرأس، امض أنت يا أقرع الرأس»، وقد التهم من قبل دين انتقاماً له، وهذه أمور تتحدث عنها الكتابات المقدسة وتشهد على صحتها.

وعلى مقربة من أريحا يوجد المكان الذي أعاد يسوع فيه النور إلى عيني الأعمى، وهو عابر من هناك، وعلى مقربة من أريحا أيضاً هناك يجري الجدول الذي جعل النبي إيليا مياهه عذبة، حيث كانت من قبل مرة، وعلى مسافة ثلاثة أميال قصيرة من أريحا يوجد البحر الميت، الذي طوله في هذه اللاد حوالي الثمانين ميلاً، وهناك قامت فيما مضى مدن: سدوم، وعاموره، ودومه، وساعور العظيمة، وقد قام الرب بالحسف بهم وبجميع الأماكن التي كانت بهم، وبها كان بقرهم مع جميع المدن هناك والقرى والقلاع والحصون، وكان ذلك بسبب اثمهم الممجوجة.

وما من إنسان يمكنه استخدام مياه هذا البحر من أجل أي غرض مهما كان نوعه، لأن لها رائحة قذرة لا يمكن تحملها أبداً وشريرة، ولهذا عندما تهب الرياح تسمم هذه المياه جميع المنطقة من حولها هناك، وفي أوقات العواصف يقذف هذا البحر كثيراً من الحصى الجميل، لكن إذا

ما التقطهم أي إنسان، سوف تبقى رائحة يده قذرة جداً لمدة ثلاثة أيام، إلى حد أنه لن يتمكن من تحمل نفسه، ويقول بعضهم أن ما من إنسان يمكنه أن يغطس هناك فيه ويغرق، وعن هذا أنا لأعرف شيئاً غير الذي قيل لي، وللصدفة ما من أحد حاول ذلك، غير أنني سمعت من بعض الناس من هذه البلدان، أنه في بعض الأماكن من هذا البحر من الممكن رؤية قعره، وفي بعضها لا يمكن، أما بالنسبة للأبنية التي كانت قائمة هناك قبل الدمار العظيم، ما من أثر منهم يمكن رؤيته، وفي الحقيقة نادراً ما يقترب إنسان منه بسبب رائحته التنتنة التي لا يمكن تحملها، ومع ذلك فإن جميع المنطقة من حوله مليئة بالأشجار وبشمار عظيمة، وفائقة الجمال أن تنظر إليها، لكن عندما يجري قطف هذه الثمار وفتحها أو تكسيرها، يجدها الانسان مليئة بالغبار والرماد في داخلها، إلى حد أن يد الانسان الذي يقطفها لا يمكنها التخلص من رائحة التنتنة المقيتة لمدة ثلاثة أيام، لأنه حتى المنطقة حول هذا البحر مليئة بلعنة الرب.

وفي هذه المنطقة الأفعى التي اسمها تيروس Tyrus موجودة ويمكن إمساكها ، ومنها الذي يدعى باسم ترياق قد نال اسمه، لأنه يصنع منها بشكل رئيسي، وهذه الأفعى ليست أطول من نصف شبر، وغلظها مثل إصبع إنسان، ولونا أصفر مزيج بلون أحمر، وهي عمياء وليس هناك دواء معروف لسمها، إلا بقطع الطرف المعضوض، وعندما تكون غاضبة تضع فمها مثل لهيب نار، ويخيل للانسان وقتها أنه نار حقيقية، سوى أنها نار لا تحرق المخلوق، ووقتها يقف شعرها فوق وجهها وكأنها خنزير وحشي غاضب، وفي تلك الأوقات يصبح رأسها أضخم، ولولا أنها عمياء أعتقد أن ما من إنسان يمكنه أن ينجو منها، ولقد سمعت من الذين صنعتهم إمساك هذه الأفاعي، أنها إذا عضت حصان إنسان، سيقتلون الممتطي له.

وعلى مقربة من البحر الميت، وعلى جهة اليمين باتجاه سبط إسرائيل، وفوق رابية صغيرة، تقف زوجة لوط، وقد تحولت إلى عمود من ملح، وكان في هذه الأماكن في أيامي بعض فرسان الداوية، الذين أخذوا أسرى لدى سقوط عكا، يقومون هناك بقطع الأخشاب هنا وهناك في الجبال في خدمة السلطان، وهم لا يعرفون بأن طائفة الداوية قد جرى قمعها وإزالتها، لأنهم يعملون هنا وهناك في الجبال، ولم يروا إنساناً من هذا الجانب من البحر منذ أن أخذوا أسرى، وجعلنا هؤلاء الرجال نقلع بقوة عن متابعة الترحال على طول ساحل البحر الميت، وذلك إذا كنا نرغب في أن لانفقد حياتنا من خلال نتنه، هذا وقد مكنونا من رؤية تمثال زوجة لوط، الذي كنا قادرين على رؤيته بوضوح عن بعد من هناك.

وفي تلك السنة أطلق السلطان سراحهم مع زوجاتهم وأولادهم، استجابة لتدخل أحد الوسطاء، وقد قدموا إلى بلاط مولانا (البابا)، ومن هناك جرى إرسالهم مشرفين إلى أوطانهم، وقد كان واحداً منهم برغندياً، وكان آخر من طولوز.

وليس بعيداً عن تمثال زوجة لوط تقوم مدينة ساعور، التي بفضل دعاء لوط أنقذت من الدمار.

وفيما وراء البحر الميت، باتجاه الشرق، توجد أحصن قلعة في العالم، وهي التي اسمها باللغة العربية «عربة»، وفي الكلدانية «شوبك»، وفي اللاتينية «مونتريال»، ولقد قيل إنه لا يوجد قلعة في العالم يمكن مقارنتها بها، ذلك أنها محاطة بثلاثة أسوار، ففي داخل السور الأول هناك صخرة مرتفعة جداً، فيها ثلاثة ينابيع تتدفق المياه منها، ومياه هذه الينابيع تسقي جميع المنطقة في تلك الأحواز، وفي داخل السور الثاني ينمو ما يكفي من القمح بسهولة للناس الذين يعيشون في القلعة من سنة إلى سنة أخرى، وكان من المعتاد أن ينمو في داخل السور الثالث كثير من الكروم، لكن

هذه الدوالي اقتلعت، وليس بإمكان العالم كله أن يحرم القلعة من هذه الأشياء، باستثناء الأشجار والدوالي، وكانت هذه القلعة فيما مضى ملكاً للصليبيين، لكن ذنوبهم جعلتهم يفقدونها بدناءة كبيرة وبسبب خيانتهم الذاتية، ويحتفظ السلطان الآن دائماً بذخائره في هذه القلعة، وبابنه ووريثه، وإلى هذه القلعة يهرب دوماً حيث يجد الملجأ وقت الحاجة، وعند سفح هذه القلعة توجد قرية اسمها الريض، يسكن فيها أكثر من ستة آلاف مسيحي يتطلعون بشوق إلى إنقاذ الأرض المقدسة.

٤٢ - حول نهر الأردن

ويصل الانسان من البحر الميت إلى نهر الأردن الذي هو نهر لايتجاوز عرضه عشر خطوات، ومع أن الأردن نهر صغير، هو عميق جداً وموحل، وهو يفيض أو يتراجع وفقاً للموسم، ففي بعض الأحيان يفيض بمياه الأمطار إلى حد أنه يمكن إبحار سفن محملة عليه، ولهذا النهر قعر موحل جداً، ومياهه عذبة، وفيه سمك رائع، وهو ينبع من حوالي سفر أربعة أيام إلى الشمال من البحر الملعون، وذلك عند سفح جبل لبنان، ويأتي ذلك من جدولين هما «أر» و«دان»، ويمر خلال الجليل، ويأخذ اسمي هذين النهرين، فيصبح اسمه «الأردن»، وهناك عند سفح جبل الكرمل جدول يتدفق من هناك فيصب في «الأر»، وعلى مقربة من البحر الميت، وعلى بعد ميلين قصيرين، وعلى نهر الأردن يوجد المكان الذي جرى تعميد المسيح فيه من قبل يوحنا، ويطلق على هذا المكان اسم مخاضة الأردن، وهنا عبر يوشع مع بني إسرائيل فوق أرض جافة، وهنا أيضاً انقسمت مياه الأردن بناء على أوامر النبي إيليا، وهنا أيضاً انقسمت المياه ثانية عندما ضربها الشبع بعباءة إيليا.

وعلى مقربة من هذا المكان، وليس بعيداً عن ضفة الأردن، جرى بناء دير جميل على شرف يوحنا المعمدان، وهو مسكون من قبل رهبان

إغريق، الذين أعلنوا أنهم يمتلكون ذراع القديس يوحنا، وقد نقل هذا الدير، وابتعد قليلاً عن ضفة النهر، بسبب أن المياه تفيض في بعض الأحيان، ويجتمع مسيحيو البلاد وجميع الحجاج من البلدان النائية مع بعضهم في هذا المكان في يوم عيد الغطاس، ويقرأون هناك من الانجيل باللاتينية: «عندما ولد يسوع في بيت لحم» الخ، ويباركون الماء، ويعمدون الصليب، ويقوم جميع الذين هم وقتها مرضى أو فيهم علة ما، بالقفز إلى الماء، فيبرأ كلهم من عللهم وأمراضهم على مشهد من جميع الناس.

ويوجد في وادي الأردن كومة من الغرلات، حيث مكان الختان، ومكان البكاء والنحيب، وموضع الاثنتي عشر صخرة، التي حملها بنو إسرائيل من أرض النهر، لتكون ذكرى وشهادة، وعن هذه الصخور تحدث يوحنا المعمدان عندما قال: «إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم» [متى: ٣/٩]، ويدعى هذا الوادي باسم وادي عكان، بسبب أنه جرى هناك رجم عكان، لأنه استولى على ذهب الملك، ومن هذا الوادي جرى أيضاً حمل إيليا ورفعته إلى السماء في عربة من نار.

وليس أبعد من ميلين قصيرين من المكان الذي جرى تعميد يسوع فيه، يدخل الأردن البحر الميت، أو البحر الملعون، ولا يرى بعد ذلك، وهناك سؤال في المشرق: لماذا يتوجب على مثل هذا الماء المبارك، دخول مثل هذا المكان الملعون؟ ويقول بعضهم إن لعنة أولهما يمكن أن تزول بمباركة الآخر، ويقول آخرون: إنه يجري ابتلاعه بمجرد دخوله، ومن الممكن تصديق الأمرين، والذي يبدو أكثر احتمالاً بالنسبة لي هو أنه يجري شربه وابتلاعه من قبل الأرض، لأن مياه الأمطار التي تتدفق من جميع التلال المنتشرة هناك تجعل نهر الأردن عظيماً إلى حد أنه يكون من غير الممكن لمثل هذه الكميات الضخمة من المياه أن تصب في البحر من

دون أن تجعله يفيض، ويغمر جميع المنطقة من حوله.

وطول نهر الأردن من نبعه حتى نهايته، هو حوالي خمسة وعشرين ميلاً من أميال هذه البلاد، وإلى جانب نهر الأردن هناك كثيراً جداً من الديرة، والقلايات والصوامع مليئة بالنعمة، ويمكن للانسان أن يرى كل أمسية على ضفاف هذا النهر نفسه وأعداداً لا تحصى من الحيوانات الكبيرة والصغيرة تشرب منه، وخاصة الأسود، والثعالب والظباء، والوعول، والأرانب، والخنازير البرية، وما شابه ذلك، وهي تسير بين الناس، وكأنها حيوانات مدجنة، واعتاد في أيامي أن يكون هناك أسد يقف بشكل دائم في مكان محدد، وذلك على الضفة القصوى من الأردن، وكان يتولى مراقبة الناس وهم يعبرون، حيث كان يحرك ذيله مثل كلب، ولا يهرب أو يتعد، ولا يؤذي أحداً سواء في النهار أو في الليل، ورغب واحد من رماننا أن يخيف الأسد وأن يغضبه، فأطلق نشابة نحوه، ولم يتحرك الأسد بل بدا وكأنه يحدق وينظر نحو السهم، لكن عندما رماه الرجل بسهم آخر، زأر الأسد وصاح بالسهم، وكأنه يريد أن يمسكه بفمه ومخالبه، وبعد هذا لم يعد هذا الأسد يرى في هذا المكان، وأخذ يسبب أذى عظيماً لكل من الناس والحيوانات التحميل.

وبشأن الحيوانات البرية هناك كثير جداً منها في تلك المنطقة إلى حد أن الناس يسوقونهم إلى السوق مثل الأغنام.

وليس بعيداً عن هناك يوجد المكان الذي اسمه تلال الأردن، حيث بنى أبناء رأوين، وأبناء جاد ونصف سبط منشا مذبحاً كبيراً ليروه، عندما تدخل هذه التلال بين أملاكهم.

٤٣ — حول رامة — شيلوه — عمواس — شيكار —
السامرة والجليل.

ومن الأردن يصل الانسان في ثلاثة أيام إلى الجليل، واليهودية،

والسامرة، وبعد رؤيته لعدد كبير من المشاهد، يخلف القدس على اليسار، ويصل إلى مدينة رامه (صموئيل الأول: ١/٢٥) القائمة فوق جبل إفرايم، ويسكن في هذه المدينة في هذه الأيام القاضي — أي أسقف المسلمين — وقد واجهنا هناك مرة كثيراً من المتاعب حول بعض المسيحيين الذين اعتقلوا هناك من خلال حماقتهم، وذلك قبل أن نطلق سراحهم.

وكان النبي صموئيل قد ولد في هذه المدينة، وفيها دفن، وعلى مقربة من هذه المدينة حدث أن كان النبي حبقوق حاملاً إلى الحصادين غداءهم، عندما أمسكه أحد الملائكة وحمله إلى دانيال الذي كان في عرين الأسود في بابل، وليس بعيداً عن رامه التي كانت فيما مضى جميلة، لكنها الآن مهجورة، توجد مدينة اسمها الرامة، وهي مسقط رأس يوسف الذي دفن المسيح.

وعلى مقربة من هذا المكان، وعلى بعد ثلاثة أميال عنه، قامت فيما مضى مدينة شهيرة، هي الآن قرية صغيرة، اسمها شيلوه، وفيها توقف تابوت العهد، واجتمع العبرانيون مع بعضهم هناك للصلاة.

وليس بعيداً عن شيلوه توجد عمواس، التي كانت فيما مضى مدينة جميلة، لكنها الآن مهجورة، وفيها ظهر المسيح إلى حواربيه بعد قيامته، واسم هذه المدينة الآن نيكوبولس (كذا — خطأ)، وعلى مقربة من نيكوبولس، على جهة اليمين، كانت تقوم فيما مضى مدن مشهورة جداً، غير أنها الآن مهجورة، نذكر منها: جبعون، وعجلون، وذلك حيث قاتل يشوع ضد خمسة ملوك، وبناء على طلبه أطالت الشمس بقاءها ولم تغب، حتى هزم أعداء بني إسرائيل.

فضلاً عن هذا، قام — ليس بعيداً عن شيلوه، في منطقة السامرة — فيما مضى مدينة جميلة في وادي، وكان اسم هذه المدينة شيكار، ولكن

اسمها الآن نابلس، وهي في هذه الأيام كلها مهجورة، وهناك جرى اغتصاب دينة ابنة يعقوب، وقد انتقم لها أولاده.

وعلى مقربة من هذا الطريق قام فيما مضى كنيسة صغيرة جميلة، هي الآن مهدمة إلى حد كبير، يوجد فيها جب يعقوب، وإلى جواره عندما كان المسيح جالساً منهكاً بسبب سفره في هيئة ضعفاً بشري، وقتها سألت امرأة سامرية اعطاه الماء ليجدد نشاطه، وقال لها حسبما جاء في الكتابات المقدسة: «لقد امتلكت خمسة أزواج».

وعلى مقربة من هذا الجب، قام يربعام، ملك إسرائيل، بصنع عجل ذهبي، قام بنو إسرائيل بعبادته، وأيضاً في حقل قريب من هذا المكان قتل داوود جالوت، هذا وهناك أماكن أخرى كثيرة مشهورة من الممكن مشاهدتها على طول هذا الطريق، سيقضي الحال وقتاً طويلاً للحديث عنها.

وإذا ما غادر الإنسان نابلس، يصل إلى السامرة، التي كانت فيما مضى عاصمة البلاد كلها، ولهذا السبب تعرف البلاد كلها باسم السامرة، وقد كانت هذه فيما مضى مدينة فائقة الجمال، ومشهورة، وملكية، ومدينة عظيمة جداً، وذلك حسبما تدلّك خرائطها على ذلك، وهي في وضعها تشبه من جميع الجوانب مدينة القدس، وقد سكن ملوك إسرائيل فيما مضى في هذه المدينة، وفي هذه المدينة أيضاً جرى دفن القديس يوحنا المعمدان بين النبيين إيليا وعوبيديا.

وعرفت هذه المدينة بالقديم باسم السامرة، وبعد ذلك باسم سبسطية، واسمها الآن إيبيلين (ينى)، ومنها تعرف حتى الآن القبيلة المسيحية الرئيسية في تلك البلاد باسم «الاييلينية» (كذا)، وكان هؤلاء في البداية فرسان فرنسيين، ولدى استرداد الأرض المقدسة وقعت هذه المدينة في حصتهم.

وبعدما يكون الانسان قد فرغ من رؤية المشاهد المتقدمة الذكر في السامرة، يمضي إلى سهول الجليل، مخلفاً الجبال خلفه، والجليل مقاطعة من مقاطعات الأرض المقدسة، وهي مقاطعة جلييلة، فيها سهول غنية، وروابي، ومراعي، وأعشاب، وأشياء أخرى جيدة، مع وديان مثمرة جداً وجميلة، ويقوم فوق سهولها، وعلى سفوح روابيها المدن التالية: نين، وكفرناحوم، وبيت صيدا، وقانا الجليل، لكن هذه المدن جميعاً الآن مهجورة، أو شبه مهجورة، ولا يعطين انطباع أنهم كن قط لمن أي شأن، والأشياء التي صنعها الرب فيهن عندما كان بالجسد مثلنا، قد ورد ذكرها بتوسع في الانجيل، وبناء عليه لست مهتماً بتكرار ذلك.

وعلى مقربة من نين توجد عين دور، التي عند سفحها يجري جدول قيسون، ولقد تمجدت أرض الجليل هذه وأشرقت بمعجزات المسيح الكثيرة فيها، وعند حدود الجليل تقوم جبال جلبوع، التي هي تلال منخفضة، مليئة بكثافة بالأعشاب الخضراء، والمزروعات، والمراعي، وعلى هذه التلال سقط شاورول، ويوناثان، وبنو إسرائيل، وعنهم قال داوود: «يا جبال جلبوع لا يكن ظل ولا مطر عليكم» [صموئيل الثاني: ١/ ٢١]، ويقول بعضهم أنه لا يسقط عليهم لاندى ولا مطر، وهذا أمر غير صحيح، لأن الانسان يمكنه أن يرى أنه قد قام فوقهم عدد كبير جداً من الديرية الجميلة، وكان ذلك فيما مضى، وتظهر الرسوم أنهم كانوا ملكاً لطائفة السسترشيان، ولطائفة القديس بندكت.

وفي أحواز جبال جلبوع تقوم مدينة بيت أوليا، التي سكنت فيها يودث، التي قطعت رأس هولوفرنس بصعوبة، غير أن المدينة مهدمة الآن.

وبعدما يرى الانسان كل واحد من هذه الأشياء، يغادر سهل الجليل، ويأتي إلى الناصرة، التي كانت فيما مضى مدينة شهيرة، وهي جميلة جداً حتى هذه الأيام، قائمة في وادي مزهر وجميل، وهي محاطة من كل

جانب بالجبال، وهي ليست مسورة، لكن بيوتها قائمة بشكل أحدها بعيد عن الآخر، ومع ذلك هي مليئة بالسكان، وتلطف الرب في هذه المدينة بالاعلان من خلال جبريل إلى العذراء المباركة مريم بأنه قد صار رجلاً.

وقد بني في هذه المدينة كنيسة عظيمة جداً وجميلة، ويوجد في داخلها، وعلى مقربة من السدة هناك بيعة جميلة، قائمة فوق البقعة التي أعلن الرب فيها بأنه قد صار إنساناً من أجلنا، ويوجد في هذه البيعة عمود صغير، وقف في مقابله جبرائيل عندما أعلن عن المسيح، وما تزال صورته مطبوعة على العمود، مثل صورة ختم على الشمع، وهي موجودة حتى هذا اليوم.

ويوجد خلف الكنيسة نبع ماء، منه اعتادت مريم المباركة دوماً على نضح الماء، وعلى مقربة منه غالباً ما تحدث إليها الملائكة وواسوها، وفي أيامي حاول المسلمون كثيراً سدّ هذا النبع مراغمة للمسيحيين والحجاج، لكنهم لم يستطيعوا مطلقاً إيقاف الماء ومنعه من التدفق، ودرس المسلمون أيضاً هذه الكنيسة المقدسة والمجيدة بطرق متنوعة، ذلك أنهم يسلخون الحيوانات الميتة فيها من أمثال: الحمير، والجمال، والكلاب، والثيران، ويرمون ما في أجوافها في داخلها، ولهذا سيتعذر على الانسان زيارة هذه الأماكن العالية القداسة بسبب الروائح النتنة.

ويسكن هناك في الناصرة أكثر المسلمين شروراً، وسوءاً، وأعيان يعرفون باسم دهيس Dehes ، حيث نادراً ما يعبأون بالسلطان، لكن حتى يدخل الانسان إلى المدينة يحتاج إلى جواز منهم وأمان، وذلك قبل كل شيء.

وعلى مسافة ميل من الناصرة، هناك صخرة فوق جبل، يطلق عليها اسم «قفزة الرب»، وهي حيث مرّ يسوع من بين وسط اليهود، ومضى

في طريقه، وكان ذلك عندما أرادوا رميه من أعلاها، وذلك حسبما تحدثنا الكتابات المقدسة، وماتزال صورة يسوع مطبوعة حتى هذا اليوم على الصخرة التي عبرها، ومن الممكن مشاهدة ذلك، وكأنها قد طبعت فوق شمع طري.

وإذا ما سافر الانسان من هذا المكان، يصل في منتصف النهار إلى جبل الطور، الذي هو جبل منفرد قائم بنفسه فوق سهل، وهو عالي جداً، لكنه ليس واسعاً، وهو من جميع الجوانب يشبه هضبة اسمها ديزنبرغ Dezenberg ، في أسقفية بادربورن.

وفوق قمة هذا الجبل تغيرت هيئة يسوع المسيح، وأشع وجهه مثل الشمس، وكان ذلك بحضور: بطرس، ويوحنا، وجيمس، وهنا ظهر كل من موسى وإلياس، وهما يتحدثان إليه، وقد بني فيما مضى فوق البقعة التي تغيرت هيئته عليها دير جليل وملكبي، تابع لطائفة القديس بندكت، وكان راعيه يستخدم على مراسيمه ختماً على الرصاص مثل البابا، ولقد رأيت كثيراً من هذه الأختام على مراسيم، وعليك أن تعرف أن عيد تغيير الرب لهيئته محافظ عليه بوقار في بلاد ماوراء البحار، وهو يجل في يوم عيد القديسين فيلكس وأغابيتوس Agapetus [٦] — أب، ووقتها يحتفل به بنبيذ جديد، وفي ذلك اليوم يلتقي جميع النبلاء وسكان المدينة مع بعضهم في الكنيسة، ويضعون أعلاماً على كنائسهم ويسهرون ويبتهجون طوال الليل، والذي تجري قراءته في القداس هو: *Dies sanctificatus Domnus dixit ad me filius illuxit* ، الخ ومن الانجيل: *Assumyist Jesus Petram et johannem* ، الخ، وقد قام المسلمون باحتلال قمة هذا الجبل مع الدير، لأنه كان فيما مضى محاطاً بشكل جيد بأسوار وأبراج، وكل شيء فوق القمة الآن مدمر ومهجور، لكن الأسوار والأبراج باقية في معظم الأجزاء، ويقراً الانسان حول هذا الجبل أشياء أخرى كثيرة، تحدثت

عنها الكتابات المقدسة وأتت على ذكرها.

ويوجد عند سفح جبل الطور قلعة حصينة جداً وعظيمة اسمها قلعة تل الصافية، وهي قد بنيت من قبل الصليبيين، للدفاع عن الطريق الذي يقود إلى الجبل، لأن الجبل ظل دوماً مملوكاً من قبل المسلمين، ويوجد في هذه المناطق قبيلة كبيرة وجيلية من المسيحيين، اسمها عشيرة تل الصافية، لأن هذه القلعة كانت قلعتهم، إنما أين ولد آبائهم قبل الاستيلاء على الأرض المقدسة، ما من أحد يعرف، وغالباً ما سئلت من قبلهم فيما إذا كان في بلادي أي قوم يقولون إن لهم أقرباء في هذه المناطق، أو يحملون رنوكهم فوق ترستهم.

ويذهب الانسان من جبل الطور إلى جبل حرمون، الذي هو جبل جميل وممتع، ويصل إلى سهول واسعة من سهول الجليل، وذلك حيث سقط سيرا مع جيشه، ثم يصل الانسان إلى شواطئ بحر الجليل، ومدينة سينارت، التي حملت فيما بعد اسم طبرية، واسها الآن طبريا، وهي قائمة على شاطئ البحر، وهي مكان بائس، ولم يكن قط أكثر بؤساً، لكن فيما مضى كان لها أسقفاً، لأن صاحبها امتلك الجزء الأعظم من بحر الجليل، وعلى مقربة من هذه المدينة هناك حمامات طبيعية حارة، مثل حمامات آخن في هذه البلاد، ويبدو أنه كان يقوم على شواطئ بحر الجليل كثير من المدن الأخرى والقرى، مع أنه لا يوجد عن أي منها روايات كثيرة، وفيها سكن حواريو المسيح، وآخرون من الناس الفقراء وصيادو الأسماك، وهم ما برحوا يسكنون هناك.

وطول محيط بحر الجليل أو بحيرة طبرية عشرين ميلاً من أميال هذه البلاد، وفيها مياه عذبة كثيرة، وأسماك كثيرة، ومياهها فائقة العذوبة، ويصب نهر «الأر» في هذا البحر من جانب، ونهر «دان» من الجانب الآخر، ومن الممكن رؤيتها وهما يعبران خلال البحر، ويخرجان منه على شكل نهر واحد، عندها يطلق عليه اسم الأردن، وفوق هذا البحر

وبجواره صنع الرب — وهو على هيئة إنسان — كثيراً من المعجزات، فمن هذا البحر دعا يسوع بطرس وأندرو، وجعلهما حواريين له، وفوق مياه هذا البحر مشى المسيح حافي القدمين، وأمسك ببطرس عندما بدأ يغرق، وعلى ظهر هذا البحر نام يسوع في السفينة، وأوقف الريح وسكّنه عندما ثارت العاصفة، وأبحر يسوع فوق هذا البحر مراراً عندما كان في هيئة ضعفننا البشري، ومجّده بكثير من المعجزات.

وإلى جانب هذا البحر ظهر يسوع لحوارييه بعد قيامته، وأكل سمكاً مشويّاً، وقرصاً من عسل النحل، وفي هذا المكان قامت فيما مضى كنيسة جميلة، هي الآن مهدامة، وإلى جانب هذا البحر هناك جبل، أطعم الرب عند سفحه خمسة آلاف إنسان، بخمسة أرغفة وسمكتين، وذلك حسباً تحدث الانجيل عن ذلك.

ويوجد على قمة هذا الجبل، في الجهة الشمالية، قلعة مرتفعة وحصينة جداً، وهي تعرف مع قريتها باسم صغد، وفيها في أيامي يسكن يهودي من وستفاليا مع زوجته، وليس بعيداً عن هذه القلعة قامت فيما مضى مدينة جميلة اسمها دان، غير أنها الآن شبه مهجورة، وهذه هي النهاية الأخرى لأرض الميعاد، لأن أرض الميعاد تمتد من دان إلى بير السبع، أي من الشمال إلى الجنوب، وطولها حوالي خمسة وعشرين ميلاً، وعرضها من أريحا إلى يافا، وذلك من الشرق إلى الغرب، ومقدار ذلك حوالي أحد عشر ميلاً بأميال هذه البلاد، وذلك حسباً سمعت من بعض رسل السلطان، ومن قوم موثوقين جداً من أهل البلاد، هم أيضاً قاموا بوصف البلاد.

وليس بعيداً عن دان، باتجاه الشمال، توجد المدينة التي كانت فيما مضى جميلة، أي مدينة بانياس، التي اسمها الآن قيسارية فيليب، وهي قائمة بشكل بهي عند سفح جبل لبنان، لكن سكانها عددهم قليل، وعلى مقربة منها حدث أن سأل يسوع حواريين: «من يقول الناس إنني أنا

ابن الانسان»[متى:١٦/١٣]، فهذا ما ذكره الانجيل.

وعلى مقربة من هذه المدينة هناك نبع قريب من الجبل، هو الذي يفصل فينيقيا عن أدوم، ويعرف هذا النبع بشكل عام باسم السبت، لأنه يتدفق في يوم السبت، وبعد مشاهدتك لجميع هذه المشاهد، تقوم بعبور الأردن عند المكان الذي يغادر فيه الجليل أولاً، وفي بلاد ماوراء الأردن تلقى سبطان ونصف سبط ميراثهما، وهنا أيضاً يفصل الأردن الجليل عن أدوم، ويتابع الانسان سفره فيرى كثيراً من القرى وأماكن لم يرد ذكرها في الكتابات المقدسة، ويصل — إذا ما اختار — إلى قرية دفن فيها أيوب، وحدث على مقربة من هذه القرية، أن وقع القديس بولص مصعوقاً وتحول (إلى المسيحية) وهي قائمة على بعد سفر يوم من دمشق.

٤٤ — مدينة دمشق

وإذا ما سافر الانسان من هذه القرية، فإنه يصل إلى دمشق، ودمشق مدينة فائقة القدم، أسسها دمشق، خادم إبراهيم، وهي قائمة فوق المكان الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل، وهي مدينة فائقة الجلالة، ومجيدة جداً، وعظيمة الجمال، وغنية بجميع أنواع البضائع، وهي بهيجة في كل مكان، غير أن حلاوتها مصطنعة أكثر منها طبيعية، وفيها وفرة عظيمة من الأطعمة، والتوابل، والأحجار الكريمة، والحريز، واللاآء، والأقمشة المذهبة، والعطور من الهند، ومن بلاد التتار، ومن مصر، ومن سورية، ومن أماكن من جانبنا من البحر المتوسط، وفيها جميع الأشياء الثمينة التي يشتهيها قلب الانسان أو يتصورها، وهي محاطة ببساتين وحدائق، تجري سقايتها بالماء من الداخل ومن الخارج، وبوساطة الأنهار، والجداول، والينابيع، وقد نظمت ببراعة، من أجل تأمين رفاه الانسان، وهي مكتظة السكان، وذلك فوق حد التصور، وهي مسكونة بمختلف الصناعات والتجار، ومن الأكثر براعة من الحرفيين وأعظمهم

جلالة، وفيها صناعات وتجاراتهم الأكثر نبلاً، وهي مزينة من الداخل، بحمامات عددها فوق حد التصور، وبطيور تغني طوال السنة، وبجميع أنواع المسرات، ووسائل الراحة، وألوان التسلية.

وكل حرفة وتجارة مقيمة بشكل مستقل في شارع خاص، ويقوم كل حرفي — تبعاً لحرفته ولبراعته — بتقديم عرض رائع لأعماله أمام واجهة بيته، ويظهر براعته، وأفضل ما يمكن أن يعمل في ميدان حرفته، ويحاول التفوق على جيرانه إذا كان ذلك ممكناً، ولهذا يزين بيته ويجمله ويجعله فخماً أكثر من التصور، ومما يمكنني إخباركم.

ويعمل التجار مثلهم بتجاراتهم، أما الحرفيون فيعملون هناك بشكل رائع، وببراعة فائقة جداً، غير أنهم يبيعون كل شيء بأثمان عالية جداً، ويمتلك الأغنياء من سكان المدينة جميع أنواع الطيور التي تغني، وأقفاص طيور يعلقونها أمام بيوتهم فيها من الطيور أمثال: العنديل، والسلوى، والقنبرة، والدراج، وما شابه ذلك، فكلهم يغنون بشكل رائع، ومتساوي تماماً طوال السنة كلها، وهم أفضل في أيام الشتاء، منهم في أيام حرارة الصيف، ويمكنك أن تسمع جميع الأنواع الأخرى من الطيور من أمثال: الغربان، والهدهد، والطيور السوداء، وما شابه ذلك، ممن يمكن تعليمهم محاكاة كلام الانسان، وبذلك تجدهم يتكلمون مثل البشر بمختلف الألسنة.

ومع أن المدينة مكتظة بالسكان كثيراً، وكذلك مع أن البضائع تترك تقريباً بلا حراسة، فإنه لا يوجد إنسان متقدم السن كثيراً يتذكر أن أي إنسان قد قتل هناك، ونادراً جداً أن جرت سرقة أية بضائع معروضة للبيع هناك، هذا ولكل بضاعة ولكل نوع من الأشياء سوق خاص به لبيعه.

وفي السوق الذي تباع فيه الأطعمة، من الممكن هناك رؤية أعظم

حشد من الناس يمكن رؤيته، اجتمع في مكان واحد، ويكون ذلك كل يوم، حيث تتوفر جميع أنواع الأطعمة التي يمكنك أن تتصور وجودها، وكثير منها قد جرى طبخه بشكل فاخر، وهم يعتنون عناية كبيرة بهذه الأشياء، ويبيعون كل شيء بالوزن والميزان، كما وتباع هناك أنواع عديدة من الخبز.

ويوجد في دمشق قلعة حصينة جداً، هي بحوذة السلطان، وفيها يسكن ملك دمشق، وفي سنة ألف وثلاثمائة وإحدى وأربعين لتجسيد ربنا، حدثت في عشية يوم عيد القديس جرجس مذبحة وملاحقة وتعذيب للمسيحيين من قبل ملك دمشق والرعا فيها، مثلما حدث في زمن متأخر مذبحة لليهود في هذه البلاد [بلاد المؤلف]، غير أن أعمال التعذيب لم تستمر بفضل الرب لمدة تزيد على الشهر، وكله جرى قمعه والانتقام له من قبل السلطان، كما ستسمع بشكل جيد فيما بعد.

ويوجد في دمشق أعداد كبيرة جداً من الكنائس لكل من الكاثوليك والهرطقة، كما هناك أديرة مليئة بالنعمة، ومن هذه الكنائس أخذ المسلمون واحدة من الكنائس الجميلة، واتخذوها كنيسة لأنفسهم، وهي التي يرقد فيها جسد ذلك الحكيم العالم، والمرجع الموثوق الهام، وأعني به القديس يوحنا الدمشقي، ويوجد على واجهة هذه الكنيسة صورة جلاله الرب مرسومة بشكل فخم.

فضلاً عن هذا، أمكن بشكل فني جعل نهر فرفر يجري خلال دمشق، حيث يدير براءة وإبداع كثيراً من الطواحين، ويوجد من حول دمشق حدائق وبساتين لانهاية لها، فيها تنمو النباتات والأعشاب، والفواكه، والورود، والزهور، على مدار السنة، وهي ساحرة بسبب غناء جميع أنواع الحمام والطيور، التي تغرد في أيام الشتاء، أكثر مما تغرد في أيام حرارة الصيف.

وتحيط هذه البساتين والحدائق بالمدينة إلى مسافة تقارب المليون، وجميع البلاد حتى إلى مناطق نائية فيها وفرة عظيمة من الفواكه الطازجة، طوال أيام السنة، وبناء عليه يرددون في الشرق ويقولون بإجماع: «دمشق هي رأس سورية»، والاغريق صدوراً بشكل دائم عن حبهم لها واحترامهم يطلقون دوماً على أكبر أبنائهم اسم بولي داماس Polydamas ، أي مدينة دمشق، وسيقتضي الحال وقتاً طويلاً للحديث عن عجائب دمشق الأخرى، وعن جمالها.

والمسافة من دمشق إلى الجبل الذي أراه الرب إلى إبراهيم، أقل من مسافة نصف يوم وهو الجبل الذي توجب أن يضحى عليه بابنه اسحق، واسم هذا الجبل، جبل سعيير أو جبل سارديني Sardenay (صيدنايا)، ويعبر الانسان أولاً نهري دمشق: أبانا وفرفر، فيجد على جبل سعيير الوعر هذا، أو سارديني [صيدنايا] ديراً جميلاً، وهو محاط من كل جانب بأسوار فائقة القوة، مثله في ذلك مثل قلعة، وهو مسكون من قبل رهبان إغريق (أرثوذكس) وراهبات، وفي هذا الدير، وفوق البقعة التي كان إبراهيم سيضحى فيها بابنه اسحق، تقوم كنيسة جميلة، يوجد في داخلها، خلف المذبح، في قوس نصف دائري، في الجدار، تمثال لمريم المباركة، وهي ترضع ابنها، وهو مدهون مرسوم من عند الوسط نحو الأعلى فوق منضدة خشبية، ومسيجة بحواجز حديدية، غير أن هذه الصورة صارت سوداء داكنة بسبب الزمن والتقييل، لذلك بات من الصعب تمييز الانسان للصورة، إلا قليلاً من اللون الأحمر يمكن رؤيته على الملابس، ومع ذلك عمل الرب من خلال هذه الصورة كثيراً من المباركات والعجائب وأعمال النعمة.

وقد قرأنا أنه في الأيام التي كان الصليبيون يحتلون فيها الأرض المقدسة ويمتلكونها، رغبت امرأة أرملة، واختارت أن تخدم الرب، بأن تتخذ صومعة على هذا الجبل، ورغبت في أن لا يعلم إنسان بذلك، حتى

لا يعاق تكريسها لنفسها وعبادتها بأي عمل دنيوي، وعلى كل حال اتخذت لنفسها عقيلة بشكل سري، كانت تزورها من وقت إلى وقت، وتجلب لها الأشياء الضرورية، وتقوم بخدمتها وصنع القداسات لها، وحدث مرة أن هذه العقيلة التي وثقت بها، كانت على نية القيام بزيارة القدس والأماكن المقدسة الأخرى، فرجتها الأرملة الناسكة بتواضع وتقوى أن تجلب لها صورة لمريم المباركة مرسومة على رقيم، لأنها من صميم قلبها متشوقة لامتلاك مثل هذه الصورة، ووعدتها العقيلة بأن تفعل ذلك، وودعت الأرملة الناسكة، وذهبت إلى مدينة القدس المقدسة، وبعدما زارت الأماكن المقدسة حصلت على لوحة عليها صورة القديسة مريم، وارتحلت عائدة تريد جبل سعيير هذا، أو «صيدنايا»، وعندما كانت على مقربة من نهر الأردن هاجمها أسد خفيف، ولم يكن بإمكانها الفرار، بل دافعت عن نفسها بيديها ضد وثبة الأسد عليها، حيث رفعت لوح الصورة وكأنه ترس، وما أن لمس الأسد اللوح حتى تمزق إلى أشلاء، وتابعت العقيلة رحلتها من دون انقطاع، ووصلت إلى الجبل، غير أنها أخفت ما حدث لها، ونزل بها عن الأرملة الناسكة، وقد حدثتها عن أشياء كثيرة حول الأماكن المقدسة، وبعدما أخبرتها بكل شيء سألت الأرملة العقيلة عما إذا كانت جلبت اللوحة التي قد رسم عليها الصورة المطلوبة، وأجابتها العقيلة التي اعتقدت أن اللوحة سوف تمتلك دوماً الفضائل نفسها التي امتلكتها من قبل، وقالت لها بأنها لم تجلبها بل نسيتهها، ولدى سماع الأرملة بذلك حزنت كثيراً، وتأسفت، وتحسرت بعمق، حتى أنها لم تستطع منع نفسها من الانفجار بالبكاء، وعندما أصرت العقيلة على موقفها، انغلقت جميع أبواب الصومعة والبيعة، وحبستها بشدة في داخلها، ولدى رؤيتها بأن هذا قد تم بإرادة الرب، قامت هذه العقيلة على الفور بالاعتراف إلى الأرملة، حيث أخبرتها بأنها حصلت على اللوحة، وأخبرتها بتفاصيل ما حدث لها أثناء رحلتها فيما يتعلق بالأسد وبأمور أخرى، وعندما

سمعت الأرملة بهذا قدمت الشكر مراراً إلى الرب وتسلمت اللوحة ببهجة، واحترام، وتقوى، ووضعتها في مكان هو الذي تقوم الآن فيه، وبدموع وصلوات قدمت التشريف للمسيح من أجل الصورة، وبعد أمد شرعت هذه الصورة ترشح بشكل واضح بزيت له رائحة طيبة، ويجري الزيت ليصب في حفرة عملت أمام الصورة، وما برح هذا الزيت يجري حتى هذا اليوم، غير أنه بسبب أعداد الحجاج، يقوم الرهبان في هذه الكنيسة بمزج هذا الزيت بزيت آخر، ويعطونه إلى الحجاج، لكن ما من شك بأن الصورة ترشح بزيت طيب الرائحة، ويتغير هذا الزيت خلال سنة إلى حليب، ثم يتغير الحليب فيما بعد إلى دم، وهو ما رأيته مراراً بعيني، فلقد رأيت في أوقات متنوعة هذا الزيت وقد تغير على هذه الصورة، ومراراً كثيراً امتلكت بعض الزيت الذي تغير هكذا بشكل إعجازي، ولهذا الزيت فضائل عظيمة ضد العواصف في البحر، وذلك عندما يجري تعليقه داخل زجاجة في مؤخرة السفينة، فوقتها تهدأ أشد العواصف وأعنفها على الفور، وهذا ما رأيته مراراً بوضوح.

ومن جهات عدة من الواضح أن لدى الرب محبة خاصة لهذا المكان، أو الجبل، بدليل أنه أظهر لابراهيم أن بإمكانه التضحية بابنه فوقه، لأنه عمل عدداً كبيراً من المعجزات تشريفاً لأمه مريم، التي رسمت صورتها هناك، ولأنه على الرغم من كثير من الاضطرابات والغزوات التي شهدتها البلاد وحدثت فيها، فهذه البلاد قد فقدت بشكل غريب وربحت من قبل شعوب مختلفة، ومع هذا فإن رهبان وراهبات هذا المكان بقيوا دوماً من دون أذى.

ولقد قرأنا — والمسألة ماتزال حاضرة في ذاكرة الناس — أنه بعدما استولى هولوكو على بغداد، الأمر الذي أتيت على ذكره — قام بنهب مصر، وجميع سورية، والمنطقة بأسرها، فخاف رهبان وراهبات هذا

المكان، وفكروا بمغادرته، وهنا ظهر الرب لهم وكذلك العذراء المباركة، بشكل مرئي، وواسوهم، ولذلك لم يبق لديهم خوف مطلقاً، ولم يغادروا المكان، ولأنهم رغبوا بالبقاء على مقربة من الرب والعذراء، اللذان شجعانهم بشكل مرئي، لم يتعرضوا بعد ذلك لأي أذى، أو ضرر من إنسان أو حيوان، أو وحش، بل كانوا في أيامي بنعمة خاصة وحظوة مع السلطان، الذي صنع لهم كثيراً من الأعمال المفيدة، وحماهم من كل جانب مثل أب.

وعند سفح جبل سعير، هناك قرية عظيمة جداً وجميلة، يسكن فيها إغريق (أرثوذكس) وسريان، وهي مليئة بالخمرة الجيدة وبكثير من الأشياء الأخرى الجيدة، وهناك متوفر في كل من الصيف والشتاء، سنة بعد سنة، عناقيد عنب طازج موجودة فوق الدوالي، وهي في الحقيقة محروسة بشكل خاص، ومعزولة لهذا الغرض، وقد صنع الرب فوق هذا الجبل كثيراً من العجائب الأخرى والمعجزات، وهذا كله صادر عن رعاية خاصة به وعاطفة نحوه، وذلك بفصائل تلك الصورة، التي تحتاج إلى وقت طويل للحديث عنها.

٤٥ — حول وادي البقاع — ولبنان — وبيروت

ولدى متابعة الانسان السفر من جبل سعير، يمكنه أن يرى أشياء كثيرة لا تحتاج إلى الذكر على الطريق، وإذا ما خلف الانسان مدينتي الرامة وطرابلس على جهة اليمين يصل إلى وادي اسمه البقاع، الذي ما يزال حتى هذا اليوم يطلق عليه اسم سهل نوح، لأن نوحاً قد سكن هناك بعد الطوفان، وهذا السهل فائق الخصوبة والغنى، ومليء بشكل عظيم بالمروج، والمراعي، والأشجار والينابيع، والقطعان، والأسماك، والقمح، وهو محصور بين الجبال، ومسكون من قبل فلاحين مسلمين.

وبعدما تكون قد فرغت من رؤية هذا كله، تصل إلى جبل لبنان،

الذي كنت قد أتيت على ذكره أيضاً، ثم تصل إلى الجبل الأسود، الذي يمتد بعيداً حتى أنطاكية، والذي عليه تنمو الأشجار التي منها يجري تصنيع القسي الزيارة، وتحمل هذه الأخشاب من هذه الجبال إلى بلدان نائية ومناطق بعيدة.

ويسكن عند سفح هذا الجبل حشد كبير من المسيحيين المتمسكين بالعقيدة اللاتينية، المرتبطين بكنيسة روما، وقد رأيت عدداً كبيراً من أساقفتهم الذين جرى رسمهم من قبل رؤساء أساقفة لاتين، والذين هم بغاية الشوق الدائم، والحنين المستمر لقدم الصليبيين، ولاسترداد الأرض المقدسة.

وبعد رؤية جميع هذه الأماكن، وقرى جميلة، وأماكن، ومزارع يصل الانسان إلى مدينة قائمة على شاطئ البحر اسمها بيروت، وهي مدينة كنت قد أتيت على ذكرها، وهذه المدينة ميناء عام للحجاج، وعلى مقربة منها قتل الشهيد القديس جرجس التين، وحول المدينة والمنطقة كلها إلى الايمان المسيحي.

ومن بيروت يستطيع الانسان أن يعود إلى أي بلد من البلدان، يود الذهاب إليه على هذا الطرف من البحر المتوسط، وهذه مسألة أدع إقرارها إلى اختياره الخاص.

وهذه هي طرق السفريات والرحلات في الأرض المقدسة، وهي طرق موثوقة، مع أنها لاتتماشى مع طرق الحجاج العامة، وعبرها ومن خلالها رأيت كما أريد، جميع الأماكن المقدسة المتقدمة الذكر، والصوامع وذلك بالوضع والشكل الذي ظهروا فيه في السنوات المذكورة من تجسيد ربنا.

والذي أعرفه أن ما من إنسان حي يمكنه أن يطعن بروايتي بأي حال من الأحوال، لأنني أنا الشاهد على كل ما رأيت، أو سمعت من رجال

صادقين، وهذه الرواية صادقة تماماً، كتبتها صدوراً عن التقوى
والاحترام اللذان أنا ممدان بهما إلى الأب الجدير بالاحترام، والمولى في
المسيح، السيد بلدوين، أسقف كنيسة بادربورن، وباسم الرب كنت قد
بدأت، وباسمه أختتم الشيء نفسه، وله الحمد والمجد إلى الأبد، والأبد،
آمين.